د/ محمد الأنور حامد عيسى

دراسة

# في التصوف الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

**توزيـــع**
شركة الصفا للطباعة والترجمة والنشر
٣٤ شارع عبد الخالق ثروت القاهرة
ت ٣٩٢٩١٩٨

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمــد لله رب العالمين ، سبحانه وتعــالى ، متصف بكل كمال ، ومنزه عن أي نقص •

واحد في ذاته ، واحــد في صفاته ، واحد في أفعــاله ، واحد في الوهيته واحد في ربوبيته ، بيده الملك وهو على كل شيء قدير •

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم •

**وبعــد :**

فهذه دراســة في التصوف الاسلامى ، تتناول الانســان حقيقته وغايته بصفته المدخل الأســاسى ، والشغل الشاغل لكل العلوم والمعارف التجريبية والنظرية •

كماتتناول التعريف بعلم التصوف ، بصفته العلم النظرى والعملى، الذى جعل جل همه التعامل مع الجانب الروحى في الانسان ، ليخلصه من شوائب المادة ، ويرتقى به الى عالم الطهر والنقاء ويقربه من العالم الملائكى •

وقد تطلبت الدراسة أن نطرح عددا من الأسئلة ، ونحاول التعرف على اجابات علمية دقيقة موجزة لها •

**من هذه الأسئلة :**

مم يتكون الانسان ؟

وما هى السمات التى تميزه عن غيره من الكائنات ؟

وما الغاية من وجوده ؟

ثم متى نشأ التصوف كظاهرة وعلم ؟ وما معناه ؟

وما هى أهم مصادر التصوف الاسلامى ؟

وفى الجانب العملى تبرز المقامات والأحوال كمبحث هام من مباحث علم التصوف .

فما معنى المقامات ؟ وما معنى الأحوال ؟ وهل هناك فرق بينهما ؟

هذا وقد اقتصرت الدراسة فى الجانب العملى على التعريف بشىء من التفصيل بالمقامات التالية :

التوبة . الورع . الزهد . الصبر . التوكل . الرضا

والله عز وجل هو المعين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

**[ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ] .**

**مدينة نصر**

**١٤١٠هـ ١٩٨٩م** **د / محمد الأنور حامد عيسى**

## المبحث الأول

## الانسان والتصـــوف

### أولا : الانسان بين الحقيقة والغاية :

يتكون الانسان من جزئين أســاسيين هما المادة والروح ، وللمادة مطالبها من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح والرعاية الصحية وغير ذلك ، وللروح مطالبهـا من الشفافية والسمو والتعلق بالفضـائل وغير ذلك •

وهذا الانســان عالم صغير ، لأن كل ما فى العالم الكبير متجسـد ومتواجد ومتجمع فى الكيان الانسانى •

فلو أمعنا النظر لوجدنا العالم يشتمل على النـار والتراب والماء والهواء ، والمعادن المتعددة ، والنبـاتات بأنواعها المختلفة ، والحيوانات والشياطين والملائكة •

وفى كل جزئية من جزئيـاته يخضع للتغير المستمر ويشمل النظام والاتقان وتهتف الجزئيات بعظمة المدبر والمعتنى •

فاذا وضعنا الانسان فى مقابلة هذه الجزئيات وجدناه يضمها كلها فى كيانه الفردى •

ففيــه الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوســة أى النار والهواء والماء والتراب •

وفيه التعدد المعدنى مثل الكالسيوم والحديد والبوتاسيوم الخ •

وفيه من النباتات النمو والتغذى والبداية والنهاية والتغير •

ومن الحيــوانات التوالد والاحساس بالألم أو اللذة والاندفاع والنفور والكراهية والحب والفناء •

وفيه من الشياطين التصنت والتسلط والاغواء والاضلال ، وأكاد أقول ان الانسان فى عالمنا المعاصر ببعده عن منهج الله ، واستحداثه لأجهزة الدمار ، ودفعه بالجوع ليقضى على بنى جنسه ، تشيطن ومع تشيطنه صارت الشياطين أقزاما بجواره .

وفى الانسان جزء ملائكى يضم الخير والنور والتسامح والشفافية والتسامى والنقاء والعمل بلا كلل لارضاء الخالق والفناء فى ذاته .

وكل جزئية فى الانسان تعكس الدقة والنظام والاتقان وتؤكد عناية الخالق وتدبيره .

[ لقد جمع الله تعالى فى الانسان قوى بسائط العالم ومركباته وروحانياته وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته ... فما من شىء الا والانسان يشبهه من وجه ](١) .

### أهم سمات الانسان :

ومع اشتمال الكيان الانسانى على كل ما فى العالم وتأكد القول بأنه عالم صغير ، فقد ميزه الخالق العظيم سبحانه وتعالى بسمات تجعله سيدا لهذا الكون ، وتدفعه للحركة الجادة فى هذا الوجود .

### من هذه السمات :

أولا : ان الله سبحانه وتعالى أضاف تسوية الانسان ونفخ الروح فيه الى ذاته العلية ، وهذا يدل على شرف هذا المخلوق وعلو منزلته عند خالقه ، وقد أمر عز وجل ملائكته أن تسجد لهذا المخلوق سجود تقدير وتكريم ، لا سجود خشوع وخضوع ، فالخشوع والخضوع لا يكون الا للخالق سبحانه وتعالى يقول عز وجل :

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص ١٢ للراغب الأصفهانى سلسلة الثقافة الاسلامية ابريل سنة ١٩٦١ .

**( اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين * فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * )**

[ ص الآيتان ٧١ ، ٧٢ ]

ثانيا : انه معلم من الله ، فقد تلقى آدم المعرفة والعلم الحق بالأشياء مباشرة من الله عز وجل ، ليقوم بدوره بعد ذلك بتعليم ابنائه ويقوم الابناء بتعليم ابنائهم ، وليستمر بعد ذلك بناء الكون على التعليم والتعلم ، الى ان تقوم الساعه ، لأن المعرفة هى اساس الوجود ، وهى الموصل الحقيقى للغاية منه • يقول سبحانه **( علم الانسان ما لم يعلم )** العلق الآية ٤ • ويقول **( وعلم آدم الاسماء كلها )** **البقرة الآية ٣١ •**

ثالثا : انه مكرم ومفضل على بقية المخلوقات ، حتى أن بعض العلماء يذهب الى القول بأن الانسان افضل من الملائكة وحجتهم ان الملائكة جبلوا على الطاعة ، اما الانسان فانه يطيع بارادته رغم وجوده فى عالم تتصارع فيه الشرور من أجل النيل من هذا المخلوق • يقول **سبحانه ( ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا )** الاسراء ٧٠ •

رابعا : أعطى الانسان العقل ليتعرف على كل جنبات الكون ، وليغوص فى أعماق ذراته ، وليتعامل مع البدائل المختلفة ، وخاصة فى جانب الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والنور والظلام •

وزود بالارادة ليختار من البدائل ما يصلح من شأنه ، أو يهوى به الى سحيق •

ومع العقل والارادة منح القدرة التى تعينه على تحقيق ما عرفه واختاره •

وقد وضح له طريق الخير والشر يقول ربنا عز وجل **( انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا )** الانسان ٣ : ويقول **( وهديناه النجدين )** البلد ١٠ •

وبهذه الأمور أصبح مسئولا مسئولية أخلاقية أمام ذاته ، ومسئولية قضائية فى دنيا الناس ، ومسئولية أخروية أمام الخالق سبحانه وتعالى — يقول عز وجل ( **يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم · فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره · ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ) الزلزلة الآيات ٦ — ٨ ، ويقول ( **وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا · اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا · من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ·** ) الاسراء ١٣ — ١٥ ·

خامسا : ان الانسان مستخلف على هذه الأرض ومعمر لكل جنباتها ، ولكى يتحقق الاستخلاف بالطريقة الصحيحة ، زود الانسان بما زود به من الميزات يقول سبحانه ( **انى جاعل فى الأرض خليفة** ) البقرة ٣٠ ، ويقول ( **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ) الانعام ١٦٥ — أى يخلف بعضكم بعضا — ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « **ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون** » · رواه مسلم ·

سادسا : ان كل ما فى الكون مسخر ومعبد ومذلل لخدمة الانسان ، يقول سبحانه ( **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون · وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون * وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون · وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون** ) النحل ١٢ — ١٥ ويقول ( **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا** ) **الملك ١٥ ، ويقول** ( **ألم نجعل الأرض مهادا · والجبال أوتادا ·** ) النبأ ٦ — ٧ ·

يقول الراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢ [ أن الله تعالى قد أوجد ثلاثة أنواع من الأحياء : نوعا للدار الدنيا وهى الحيوانات ·

ونوعا للدار الآخرة وهو الملأ الأعلى . ونوعا للدارين وهو الانسان .
واسطة بين جوهرين وضيع وهو الحيوانات ورفيع وهو الملائكة ، فجمع
فيه قوى العالمين وجعله كالحيوانات فى الشهوة البدنية والغذاء
والتناسل .. وكالملائكة فى العقل والعلم وعبادة الرب ... ووجه الحكمة
فى ذلك أنه تعالى رشحه لعبادته وخلافته وعمارة أرضه ](1) .

**الغاية أو الهدف :**

الانسان على هذا مميز على بقية المخلوقات ، وهو سيدها وكل
شىء فى الوجود فى خدمته .

فما هى الغاية من وجوده ؟

هل الغاية أن ينصرف عن الدنيا كلية ، ويرتمى فى أحضان الرهبنة
والشظف والخشونة ، ويتقوقع داخل ذاته ، ويعيش دنياه فى سلبية
قاتلة يسميها — على غير حقيقتها — أحيانا بالتدين وأحيانا أخرى
بالتصوف ؟

هل الغاية أو المطلوب من الانسان أن يتأسد للآخرين وللكون
ويعيش لماديته وغرائزه ويخضع فى كل سلوكياته لنفسه الأمارة
بالسوء ؟

هل المطلوب منه أن يختلق المعارك ويروح فى أنانية وحب للذات
يجادل نفسه ومن حوله فى أمور لا هى من الأصول ولا من الفروع ؟

ما هو المطلوب :

المطلوب من الانسان أولا : أن يعرف ربه سبحانه وتعالى ويتعرف
على دلائل وجوده عز وجل المبثوثة فى الكون وفى الآفاق وفى النفس
البشرية يقول سبحانه وتعالى [ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم

---

(1) المرجع السابق ص ١٩ .

حتى يتبـين لهم أنه الحق ] فصلت ٥٣ ، ويقول عز وجل **[ وفى الأرض آيات للموقنـين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون * وفى السـماء رزقكم وما توعدون * فورب السـماء والأرض انه لحق مثـل ما أنكم تنطقون ]** الذاريات ٢٠ — ٢٣ ٠

ومع المعرفة والتعرف يصدق تصـديقا قلبيا لا يداخله أى شـك بوجوده عز وجل وبوجدانيته فى الذات وفى الصفات وفى الأفعال ، ويؤمن بوحدانيته فى الربوبية ٠ اذ أنه وحده هو الخالق الرازق المحيى المميت المعز المذل بيده كل شىء ومنه كل شىء واليـه كل شىء يقول سـبحانه **[ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشـاء بيدك الخير انك على كل شىء قـدير ٠ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ]** ال عمران — ٢٦ — ٢٧ ٠

كذا يؤمن بوحدانيته فى الالوهية ، اذ أنه وحده المستحق للخشوع والخضـوع والطاعة والانقياد والتسليـم المطلق ، وهو حده المسؤول والمعين والناصر ٠ يقول سبحانه فى سورة الفاتحة **[ اياك نعبـد واياك نستعين ٠ اهدنا الصراط المستقيم ]** ويقول **[ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبـد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ]** ال عمران — ٦٤ ٠

ويترتب على الايمان بالله التصديق القلبى الجازم بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ٠

والمطلوب من الانسـان ثانيا أن يتحرك بايجابية كاملة فى هـذا الوجود ، وأن يؤكد ذاته وفق ما أراد الله ، ولا يكون ذلك الا بالكدح واستفراغ كل طاقته ، والحركة الجادة اليقظة الأمينة لاستنطاق كل شىء والاستفادة منه فى حدود ما شرعه الله عز وجل يقول سبحانه **[ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ]** الملك — ١٥ — ويقول **[ فاذا قضيت الصلاة**

**فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضـــل الله واذكروا الله كثـــيرا لعلكم تفلحون ]** الجمعة — ١٠ •

وليجعل من ناتج عمله نصيبا للفقراء والمساكين حتى تكون يده هى العليا يقول الرسول الكريم « اليد العليا خير من اليد السفلى » — رواه مسلم — ويقول « ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرســا فيأكل منه انسان أو دابة أو طير الا كان له به صدقة » ذكره أحمد بن حنبــل فى مسنده والترمذى فى سننه •

وليفهم أن التوكل ايجابية فهو يعنى الأخذ بالاسباب وطلب العون من الله والثقة فى أنه نعم المعين •

يقول الرسول صلى الله عليه وســلم « **اعقلها وتوكل** » — ذكره الترمذى فى سننه •

ولقد دخل عمر بن الخطاب المسجد بعد الصلاة فرأى أناسا يقبعون فيه فعلاهم بدرته • أى ضربهم بها على رؤوسهم وهو يقول « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم أرزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » •

والمطلوب من الانسان ثالثا : أن يتأكد ويتيقن أن غاية الغايات هى أن يكون فى ابتلاء دائم يقول سبحانه ( انا خلقنا الانسان من نطفــة **امشاج نبتليه )** الانسان — ٢ ويقول **( الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم )** الملك — ٢ •

ولكل ابتلاء أو اختبار أو امتحان مادة ، ومادة الابتلاء هى العبادة يقول سبحانه **( وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون )** — الذاريات — ٥٦ •

والعبادة لا تعنى الصلاة والصـــيام والزكاة والحج فقط وانما تنسحب لتشمل كل ما يصدر عن الانسان بارادته من قول أو فعل أو ترك ، اذا كان ذلك فى سبيل مرضاة الله •

فهى اسم جامع شــامل لكل ما يحبه الله ويرضاه ، هى الالتزام بالأوامر والابتعاد عن النواهى •

فالصلاة اذا أبعدت الانسان عن الفحشاء والمنكر ووصلت الانسان بربه أى أديت بالطريقة التى يريدها الله فصاحبها عابد لله ، ويكون الصوم وقاية للانسان من الوقوع فى الخطيئة اذا كان خالصا لله عز وجل بلا شوب ولا رياء .

وتطهر الزكاة الانسان مما فيه اذا أعطيت كحق للفقير بلا منه .

ويكون الحج هجرة الى الله وانتقالا من ظلمة الجسد الى نقاء الروح وشفافيتها اذا خلا من المباهاة ، وكان بمال طاهر زائد عن حاجة من يعول .

والتخلق بالأخلاق الكريمة والانصراف عن الرذائل والالتزام بالاوامر الربانية فى كل جنبات الحياة عبادة .

وتأكيد الانسان لذاته وفق ما أراد الله عز وجل ، واعلاء كلمة الله واعداد العدة للدفاع عن دين الله ، والزواج اذا أريد منه تحصين الفرج وغض البصر والولد الصالح عبادة .

وبر الوالدين وصلة الرحم والتعامل بالصدق والأمانة والوفاء بالعهود والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والاحسان للجار والمسكين عبادة .

اننا لو أردنا أن نعيد تكوين المجتمع الاسلامى المثالى فما علينا الا أن نعبد الله العبادة التى يريدها الله ولن يتحقق ذلك ، الا اذا أخلصنا النية ، وصدقنا مع أنفسنا قبل أن نصدق مع غيرنا ، وعاد كل واحد منا بأمانة للأخذ من النبعين الطاهرين القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وأعتقد أن التصوف من العلوم التى تأخذ بيد الانسان لتعرفه بحقيقته وغايته ، وتسلك به كل الطرق الموصلة الى الفهم الصحيح والعمل الجاد بكل ما جاء فى القرآن الكريم والسنة المشرفة ، ومع الفهم والعمل يكون الاقتراب من الخالق العظيم سبحانه وتتحقق خلافة الانسان على الأرض كما أرادها عز وجل .

## ثانيا : نشــأة التصــوف

عرفنا أن الانسان مكون من مادة وروح ، وللمادة مطالبها الخاصة ، كما أن للروح مطالبها الخاصة ، ولهذا تعددت العلوم التى تختص بالمادة كما تعددت أيضا العلوم التى تختص بالروح •

والتصــوف من العلوم التى تعنى بالجانب الروحى فى الانسان ، ويمكننا القول بأن ظاهرة التصوف واكبت وجود الانسان على الأرض منذ البدء •

ولهذا رأينا العباد والزهاد والمتوكلين فى كل جيل من الأجيال •

الا أننا نسارع فنقول : انه كعلم مستقل له أسسه وموضــوعاته ومنهجه وغايته ، نشأ متأخرا فى الاسلام •

لقد عرف من عاش مع محمد صلى الله عليه وسلم واتبع دعوته ، وتفانى من أجلها بالصحابة ، وعرف من جاء بعد الصحابة بالتابعين ومن الصحابة والتابعين كان الزهاد والعباد والمتوكلون والبكاءون النســاك والفقراء •

وحينما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، وانشغل كثيرون بالجانب المادى ، وجــدت طوائف أخرى تؤثر الانكباب على دراســة العــلوم المختلفة ، فالذين اشتغلوا بجمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتبويبها والبحث فى المتون والسند ، الخ سموا بالمحدثين •

والذين اشتغلوا باســتنباط الأحكام الفقهيــة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وأقوال وأفعال الصحابة ، سموا بالفقهاء •

والذين اشتغلوا بالدفاع عن الدين وصد التيـــارات الالحادية ، واثبات وحدانيـــة الخالق ، واتصـــافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص ، وتحدثوا عن الرسل ومالهم والملائكة والكتب واليوم الآخر والقضـــاء والقدر الخ سموا بالمتكلمين .

ووسط خضم هائل من العلوم الاسلامية والعلماء ، نشأت طائفـــة لا تتفرغ لعلم واحد ، ولا تستمر فى منزلة أو مقام واحد ، ولا تبقى على حال واحد بل سمتها المميزة حب الله تعالى ، وتطهير القلب عما ســـوى الله ، واستغراق القلب بذكر الله .

وسميت هذه الطائفة بالمتصوفة كما سمى علمهم بعلم التصوف . فمن أين اشتقت كلمة تصوف وما معناها ؟ .

قبل أن نجيب يلزمنا أن نشير الى أمرين :

الأول : ان أوثق المصادر الصـــوفية تطلعنا على ان أول من أطلق عليه اسم الصوفى هو أبو هاشم الكوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ وقد كان عربيا من الكوفة ، تأثر فى حياته بما كان يؤثره النبى صـــلى الله عليه وســـلم والصحابة من بساطة فى العيش وابتعاد عن زخرف الدنيا . كما تأثر بما ورد فى القرآن الكريم عن المعصية والحســـاب . وما ادخر فى الآخرة للمؤمنين من ثواب عظيم وللكافرين من عذاب شديد[١] .

ويذهب القشيرى الى القول بأنه قيل لخواص الناس بعد تابعى التابعين ممن لهم عناية كاملة بأمر الدين . الزهاد والعباد ومع ظهـــور البدع وكثرة الفرق ادعى كل فريق ان فيهم زهادا .

---

(١) الحياة الروحية فى الاسلام ص ١٠٤ د/محمد مصطفى حلمى نقلا عن نفحات الأنس ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٤ .

فانفرد خواص أهـل السنة والمراعون أنفاســـهم مع الله تعـالى الحافظون قلوبهم من طوارق الغفلة باسم التصـــوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة(١) .

ثانيا : ان ما نراه فى الموالد والمناسبات الدينية من جماعات تسمى نفسها بالمتصوفة ، ويرتدى أصحابها بعض الرقاع المخططة أو المزركشة ، ويحملون الاعلام الســـوداء أو الحمراء أو البيضـــاء ، ويتبخترون فى مشيتهم ويردد بعضهم الشـــعارات الدينية بصـــوت منغم وفى حركات راقصـــة .

هؤلاء ليسوا من المتصوفة ولا يشرف التصوف ان ينتسبوا اليه .
لأن التصـــوف فى جوهره نقاء عقلى وصفاء قلبى وسمو روحى انه نظام روحى لا فوضى جسمانية ، انه تعقل لا بله .

أنه نظافة وتطهر للظاهر والباطن ، لا استعراض للرث والمضحك من الثياب .

**الاشتقاق اللغوى لكلمة تصوف :**

بدءا فان الاحتمالات تتجه نحو الألفاظ الآتية :

الصوف ــ الصفاء ــ الصف الأول ــ الصفة ــ أهـل الصفة ــ صوفة ــ صوفانه ــ ثم سوفيا الكلمة اليونانية . ولاختبار كل احتمال فاننا نجد :

أولا : لبس الصوف يدل على الخشـــونة فى العيش ، ولا يحتاج مرتديه الى تغيره كثيرا ، وذلك لأن الزاهد فى الحياة والمتفرغ للعبادة والتأمل فى ملكوت الله لا يريد أن ينشغل بشىء عن العبودية لله والفناء

---

(١) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٥٢ ، ٥٣ للامام القشيرى ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة بدون تاريخ .

فى ذاته ، وقد لبس الأنبياء والأولياء الصوف فسيدنا عيسى عليه السلام لبس الصوف تعبدا ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لبس الصوف تواضعا وزهدا وبعدا عن الرياء ، ولهذا حينما رثاه عمر بن الخطاب قال :

ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك • وقد واسى عليه الصلاة والسلام أهل الصفة ولم يكن عندهم غير جباب الصوف •

وليس من المتعــذر أن ينسب القوم الى ملبسهم ، فقــد نسب القــرآن الكريم تلاميذ عيسى عليه الســلام الى ملبسهم حيث قال **( اذ قال الحواريون )** المائدة — ١١٢ — نسبة الى لبسهم البياض •

ولما كان الصوفيــة ينتقلون من حال الى حال ، ولا يستقرون فى مقام ، كان من المتعــذر تسميتهم بعلم من العلوم لاشتغالهــم بكل العلوم • أو بحال من الأحوال للتغير المســتمر فى أحوالهم ، أو بمقام من المقامات لانتقالهــم الدائم ، ولذلك سموا بالأغلب وهو لبســم الصوف حيث يقال تقمص اذا لبس القميص وبالتالى يقال تصوف اذ لبس الصوف •

يقول أبو نصر السراج الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ هـ :

ان سأل ســائل فقال قد نسبت أصحاب الحديث الى الحديث ، ونسبت الفقهاء الى الفقه ، فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم الى حال ولا الى علم ولم تضف اليهم حالا كما أضفت الزهد الى الزهاد والتوكل الى المتوكلين والصبر الى الصابرين ؟ •

فيقال له : لأن الصوفيــة لم يتفردوا بنــوع من العلم دون نوع ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رســم ، وذلك لانهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الاحوال المحمودة والأخلاق الشريفة ••

وهم مع الله تعالى فى الانتقال من حال الى حال ••

فلما كانوا فى الحقيقــة كذلك لم يكونوا مستحقين اسمــا دون اســم ••

فلما لم يكن ذلك نسبتهم الى ظاهر اللبسة لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الاولياء والاصفياء ..

فلما أضفتهم الى ظاهر اللبسة كان ذلك اسما مجملا عاما مخبرا عن جميع العلوم والاعمال والاخلاق والاحوال الشريفة(١) .

ويقول الكلاباذى :

( ومن لبسهم وزيهم سموا صوفية لأنهم لم يلبسوا لحظوظ النفس ما لان منه وحسن منظره وانما لبسوا لستر العورة فتجزوا بالخشن من الشعر والغليظ من الصوف )(٢) .

ونخلص الى رأى نستريح له وهو أنه على الرغم من أن الصوفية لم يختصوا دائما بلبس الصوف بل كان لبسه هو الغالب فقط الا أننا نرى أن اشتقاق كلمة تصوف من الصوف أقرب للحقيقة ، لأن هذا الاشتقاق يمثل جانبا هاما من حياة الصوفية وهو الخشونة والزهد والترفع عن الدنيا والابتعاد عن الرياء وعدم الاشتغال الا بحب الله ، والتفانى فى عبوديته والتواضع مع خلقه .

ولقد كان لبس الصوف هو اللبس الغالب على الأنبياء والاولياء ويروى أن الحسن البصرى أدرك سبعين بدريا — أى من أهل بدر — كان لباسهم جميعا الصوف [ ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقال كانوا يخرون من الجوع ، تحسبهم الأعراب مجانين ، وكان

---

(١) اللمع ص ٤٠ ، ٤١ للطوسى . ، دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٠ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٣٥ للكلاباذى ، الناشر الكليات الأزهرية ، ط ثانية ١٩٨٠ .

لباسهم جميعا الصـــوف ، حتى ان بعضهم كان يعرق فى ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن اذا أصابه الغيث ](١) .

ونسبتهم — أى الصوفية — الى الصـــوف تبين الحالة التى هم عليها من زهد فى الدنيا ، وابتعاد عن رغبات النفس ، وميل الى الخشونة فى العيش .

ويؤيد هذا الرأى كثير من العلماء منهم ابن خلدون حيث يقول [ والأظهر أن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم فى الغالب مختصون بلبسه ، لما كانوا عليه من مخالفة النفس فى لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف ](٢) .

ثانيا : الصوفى صافيـــا نقيا لا يشغله شىء ســـوى الله سبحانه وتعالى .

وعلى هذا فانه من المحتمـــل أن تكون كلمة تصـــوف قد اشتقت من الصفـــاء أو الصفو [ وللصفاء أصـــل وفرع ، فأصله انتزاع القلب من الأغيار ، وفرعه نقض اليد من هذه الدنيا الخادعة ](٣) ، الا أن اللغة تضعف هذا الاحتمال ، لأن النسبة الى الصفاء صفائى وصفاوى .

ثالثا : الصوفى فى جهاد دائم مع العدو الخارجى من أجل اعلاء كلمة الله ، ومع العدو الداخلى وهو النفس من أجل تزكيتها حتى تسير فى طريق الله ، فهو دائمـــا فى الصف الأول بين يدى الله سبحانه يقول الكلاباذى [ وقال قوم انما سموا صوفيـــة لأنهم فى الصف الاول بين

---

(١) عوارف المعارف ص ٦٠ للسهرودى ط ١٩٧٣ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧ ط الباز بمكة المكرمة ١٣٩٨هـ .
(٣) كشف المحجوب ص ٤٠ للهجويرى دار التراث العربى ١٩٧٤ .

يدى الله جـل وعز بارتفاع هممهم اليـه واقبالهم عليه ، ووقوفهم بين يديه ](١) .

لهذا يبقى احتـمال اشتقاق كلمة تصـوف من الصف الأول ، الا أن هذا الاحتمال تضعفه اللغة ، لأن النسبة الى الصف صفى .

رابعا : الصوفى يتحلى بمكارم الأخلاق فى ظاهره وباطنه ، فهو مع كل خلق سنى وضد كل خلق دنى . ولهـذا يجوز أن يكون اشتقاق التصـوف من الصفة الحميدة . الا أن النسبة فى اللغة صفتى أو صفى وليس صوفى .

خامسا : وأهل الصفة جماعة طاهرة من فقراء المهاجرين والأنصار آثروا الله سبحانه وتعالى ورسـوله على كل شىء ورضـوا بالجوع والخشن من الثيـاب ، وتفرغوا للعبادة فى مؤخرة مسجد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا يمكننا أن نقول ان التصـوف مشتق من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الا أن اللغة تخالف ذلك حيث تكون النسبة الصفية وليس الصوفية .

سادسـا : وقالوا : [ ان أول رجل وقف نفسه كليـة لخدمة الله عز وجل كان يجاور الكعبة واسمه صوفة أما اسمه الحقيقى فهو الغوث ابن مر ، والزهاد الذين كانوا يشبهونه من حيث الانقطاع عما سـوى الله سموا بالصوفية ](٢) .

ويذهب ابن تيمية الى القول بأن صوفة قبيلة عربية كانت تعيش فى الجاهلية ، وكانت تخدم الكعبة ، واليها نسب النساك وقد قيل ان

---

(١) التعريف لمذهب أهل التصوف ص ٢٨ .

(٢) تاريخ التصوف فى الاسلام ص ٦٠ د/قاسم غنى — ويعرفنا الدكتور النشار بالغوث بن مر اليمنى فيقول سمى الغوث صوفه لأنه ماكان يعيش لأمه ولد فنذرت بعد ولادته أن هو عاش لتربطن براسه صوفة ولتجعلنه خادما للكعبة ، ولقد فعلت واشتهر بصـوفة ، كما اشتهر من جاء من ولده بذلك ، راجع نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جـ ٣ ص ٤٠ دار المعارف .

التصوف نسبة الى صوفة التى هى القبيلة[1] ، وأيا ما كان الأمر فهو احتمال قائم .

الا اننا نسارع فنوافق ابن تيمية فى استبعاده ، واعتباره من أضعف الآراء لما يلى :

( ا ) ان صوفة الذى هو الغيث بن مر أو القبيلة العربية والتى وجدت فى الجاهلية ليسا بمعروفين وبخاصة عند أكثر المشتغلين بالتصوف .

(ب) ان هذه النسبة لو كانت موجودة فى عصر الصحابة والتابعين لظهرت على ألسنة بعضهم وهذا لم يحدث .

(ج) ان كثيرا من المتصوفة لا يرضى أن يكون منسوبا فى تصوفه الى قبيلة جاهلية عاشت زمنها الماضى ولم تعرف فى الاسلام[2] .

سابعا : وصوفاته نوع من النبات الصحراوى ربما كانت نسبة المتصوفة اليه لاقلالهم فى طعامهم واكتفائهم بالدنى منه مثل نبات الصوفانة .

الا أن النسبة الى الصوفانة فى اللغة الصوفانى وليس الصوفى يقول أبو نعيم [ وان أخذ التصوف من الصوفانة التى هى البقلة فلاجتزاء القوم بما توحد الله عز وجل بصنعه ومن به عليهم ... فاكتفوا به عما فيه للادميين صنع كاكتفاء البررة الطاهرين من جلة المهاجرين ][3] .

ثامنا : وهناك الكلمة اليونانية سوف أو سوفيا وتعنى الحكمة . يقول أبو الريحان البيرونى [ ان من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقى للعلة الأولى فقط — أى الله عز وجل — لاستغنائها بذاتها فيه

---

(١) مجمو ع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية م ١١ ص ٦ .

(٢) نفس المرجع والمكان .

(٣) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٧ لأبى نعيم الأصفهانى دار الفكر بيروت.

وحاجة غيرها اليه وأن ما هو مفتقر فى الوجود الى غيره فوجوده كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط وهـذا رأى الصـوفية وهم الحكماء ، فان سوف باليونانية الحكمة ، وبها سمى الفيلسوف بيلا سوبا أى محب الحكمة ، لما ذهب فى الاسـلام قوم الى قريب من قولهم سموا بأسمهم ••• ثم صحف بعد ذلك فصير من صوف التيوس ](١) •

وهذا الرأى لا نستريح له ، اذ أن قبوله يعنى أن التصوف دخيل على الاسلام والمسلمين وهذا مرفوض فى رأينا •

ثم انه لا يستقيم لسبب بسيط وهو أن التسمية بالصـوفى كانت موجودة بين المسلمين ومعروفة لهم قبل ترجمة الفلسفة اليونانيـة الى اللغة العربية(٢) •

ويمكننا بعد هذا العرض المبسط أن نقول اننا نستريح للقول بأن كلمة التصوف والصوفى والمتصوفة مشتقة من الصوف وهـو اللباس الغالب على الانبياء والاولياء •

ومع هذا فنحن لا نلغى كليـة الاشـتقاقات الاخرى ، لأن كل اشتقاق يمثل جانبا من جوانب التصوف • فالصوفى والمتصوف مع لبسه للصوف تواضعا وبعدا عن الرياء وزهدا وزيادة فى التعبـد ، يتحقق فيه الصفـاء فى أسمى معانيـه ثم هو دائما فى الصف الأول بين يدى الله مجاهدا ضد الأعداء ، وهو يتحلى بكل الصفات الجليلة ويتخلى عن كل الصفات الذميمة ، وهو فقير بنفسه غنى بخالقه ، خادم طيع لدينه ، وهو عزوف عن كل ما لذ وطاب يكفيه من الطعام والشراب ما يحمله على حب الله والتفانى فى عظمته ، وهـو فى ظاهره وباطنـه لا يخرج عن دائرة الاحسان •

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٧ عالم الكتب ط ٢ فى ١٩٨٣ .
(٢) ابحاث فى التصوف ص ١٧٢ د/عبد الحليم محمود ملحقة بالمنقذ من الضلال للغزالى دار الكتب الحديثة .

فالاسلام بكل معانيه ظاهره ، والايمان بكل محصلاته باطنه ، والاحسان هو الجامع للظاهر والباطن وهو الحقيقة لحركته فى الوجود .

هذا ويسمى الصوفية أحيانا بالغرباء ، لخروجهم بعيدا عن أوطانهم وهجرتهم لذاتهم ، كما يسمون بالسياحين ، لكثرة اسفارهم ، وبالشكفتية لسياحتهم فى البرارى وسكناهم أحيانا فى الكهوف والمغارات [ والشكفت بلغتهم أى الغار والكهف ] ، ويسميهم أهل الشام بالجوعية ، لانهم لا يتناولون من الطعام الا لقيمات تعينهم على مواصلة العبادة امتثالا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه » رواه الترمذى .

كما يسمون بالفقراء ، لتخليهم عن الأملاك .

وسموا أيضا بالنورية ، لأنهم أصفياء أنقياء نور الله قلوبهم[1] .

---

(١) التعرف ص ٢٩ — ٣٢ الكلاباذى .

## ثالثا — تعريف التصوف

عرفنا فيما سبق من أين اشتقت الألفاظ : تصـوف ، صـوفى ، متصوفة •

ونذكر الآن بعض التعريفات للتصوف منسوبة لأصحابها ، مع تعليقات لنا كلما دعت الضرورة لذلك •

١ — يقول معروف الكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ هـ [ التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف ](١) فالمتصوف مع ايمانه الكامل بالله سبحانه وتعالى وبكل ما جاء من عنده ، والتزامه بالمنهج الربانى فى العبادات والمعاملات والأخلاق ، يذهب لاكثر من ذلك بروحه وقلبه وعقله بحثا عن الحقيقة الباطنة لظاهر الأوامر والنواهى ، التى ربما لا تستبين للعقل وحده ، ولا تتضح الا بالكشف القلبى والالهام الروحى ، وهو بعد كل هذا زاهد زهدا كاملا فى كل ما يتطلع اليه الناس من متاع الدنيا وزخرفها وحسبه أن الآخرة هى خير وأبقى ، أما الدنيا فهى دار الابتلاء والاختبار وهى دار الغرور ، والمتصوف فقير دائما الى الله تعالى غنى عما سواه •

٢ — سئل ذو النون الصوفى المتوفى سنة ٢٤٥ عن التصوف فبين انه ايثار الخالق على المخلوق وذكر حالة المتصوفة التى تشير الى هذا المعنى حيث يقول [ هم قوم آثروا الله عز وجل على كل شىء فآثرهم الله عز وجل على كل شىء ](٢) •

(١) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٥٥٢ وعوارف المعارف ص ٥٤ •
(٢) الرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٥٥٥ •

أى أنهم أحبوه سبحانه وشغلوا حياتهم كلها بمعرفته وتوحيده والتفانى فى عبادته والانصراف عما عداه ، فأحبهم الله عز وجل وقربهم منه وتولاهم برعايته .

٣ — يقول السرى السقطى المتوفى سنة ٢٥٧هـ [ التصوف اسم لثلاثة معان : هو الذى لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم فى باطن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله ](١) .

فالمتصوف يربى نفسه تربية شاقة ، ويخلص روحه من أدران المادة ، وهو بذلك التخلص تشف روحه وتتصل بالملأ الأعلى وتتعرف على الحقائق . ومع معرفة الصوفى الحقة فانه لا يفتر ولا يتعالى كما يفعل علماء المادة ، بل ينطق ظاهره وباطنه بالتواضع والورع والحب النقى فى أسمى معانيه ، وهو فى حديثه الباطن لا يخرج أبدا عن الكتاب أو السنة ، واذا ظهرت على يديه بعض الكرامات فانه يزداد خوفا ، ويحاول اجتناب الناس حتى لا يفتتنوا به ، ولا يدعى العصمة من الخطأ لظهور الكرامات على يديه ، بل يعترف صراحة أن لا عصمة الا للرسل عليهم السلام .

٤ — وقد سئل الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ هـ عن التصوف فقال [ هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به ](٢) بمعنى تجرد النفس كلية عن العلائق المادية وانصرافها الى الذات العلية فالصوفى قائم بالله لا بنفسه . والصوفى فى نظر الجنيد هو الذى يعتبر الدنيا بكل زخرفها وملاذها ظل زائل ، وبذا لا يأبه بالامتلاك ولا يعمل من أجله وان امتلك شيئا فامتلاكه ليس له ، ولا تدفعه الملكية الى الاستكانة أو الخضوع لسلطانها ، أو الاغترار بها ، بل هو دوما لا يملك شيئا ولا يمتلكه شىء ، وهو دائما مع

---

(١) فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٢٩ نيكلسون نقلا عن تذكرة الأولياء .

(٢) عوارف المعارف ص ٥٧ السهروردى .

الله بلا أى وسائط [ الصوفى من أحس قلبه السلامة من الدنيا كما أحسها قلب ابراهيم فأطاع أوامر الله ، ومن كان تسليمه كتسليم اسماعيل ، وحزنه كحزن داود ، وفقره كفقر عيسى ، وشوقه كشوق موسى فى مناجاته ، واخلاصه كاخلاص محمد صلى الله عليه وسلم ](١) •

٥ ـ ويقول أبو محمد الجريرى المتوفى سنة ٣١١ مجيبا من سأله عن معنى التصوف بأنه [ الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى ](٢) فالتحلى الكامل فى الظاهر والباطن بالفضائل ، والتخلى الكامل فى الظاهر والباطن عن الرذائل هو التصوف •

وفى نفس هذا المعنى يقول أبو بكر الكتانى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ [ التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء ](٣) •

التصوف اسم يجمع بين الزهد والفقر وكريم الاخلاق هو [ اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيد أوصاف واضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وان كان زاهدا وفقيرا ](٤) •

والفرق بين الفقير العادى والفقير الصوفى أن الأول يتطلع الى العوض فى الآخرة ، فهذا كالتاجر الذى يرضى بالربح القليل حتى ينال الثواب الكثير ، أما الثانى فهو يرضى بفقره عن قناعة ولا يتطلع الى عوض •

ونختم التعريفات السابقة بقول للامام الطوسى حيث يقول [ لبعض المشايخ فى التصوف ثلاثة أجوبة : جواب بشرط العلم وهو تصفية القلوب من الأكدار ، واستعمال الخلق مع الخليقة ، واتباع الرسول فى الشريعة • وجواب بلسان الحقيقة ، وهو عدم الاملاك ، والخروج من رق الصفات ، والاستغناء بخالق السموات • وجواب بلسان

---

(١) فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣٣ نقلا عن التذكرة •
(٢) عوارف ص ٥٥ السهروردى •
(٣) الرسالة ج ٢ ص ٥٥٤ •
(٤) عوارف ص ٥٥ •

الحق ، اصفاهم بالصفـــاء عن صفاتهم ، وصفاهم عن صفاتهـــم فسموا صوفيـــة ](١) •

وبالنظر فى هذه التعريفات للتصوف نجد أن البعض يصـــف حال المتصوف ، والبعض يوضح أخلاقه ، والبعض يحدد صلة الصوفى بالله وصلة الله سبحانه به ، وصلة الصوفى بالكون ومن فيه وما فيه • والبعض يتحدث عن وسائل الصـــوفى فى تأكيد صـــلته بالله والغايات التى يرمى اليها •

ولعل أصدق تعريف للتصوف يحدد الوسائل والغايات هو تعريف أبى بكر الكتانى الذى يقول فيه ان التصـــوف [ صفاء ومشاهدة ] يقول السهروردى فى عوارفه الصوفى [ هو الذى يكون دائم التصفية ويغنيه على هذه التصفية دوام افتقاره الى مولاه ••• وكلمـــا تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها ، أدركها ببصيرته النافذة وفر منها الى ربه ](٢)•

فالصفاء كما يقول أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود هو وسيلة الصوفى والمشـــاهدة هى غايته(٣) وبين الوسيلة والغاية يعيش الصـــوفى ما كتب له من عمر فى دنيا الناس •

ونختم الحديث بذكر بعض التعريفات التى تعطينا اجابة واضحة عن هذا السؤال •

**من هو الصوفى ؟**

يقول صاحب التعرف قال بشر بن الحارث [ الصوفى من صفا قلبه لله ](٤) • وسئـــل أحدهم من الصوفى ؟ فقال [ ان العبـــد اذا تحقق

---

(١) اللمع ص ٤٨ •

(٢) عوارف ص ٥٩ •

(٣) أبحاث فى التصوف ص ١٨٨ •

(٤) التعرف ص ٢٨ •

بالعبودية ، وصافاه الحق حتى صفا من كدر البشرية نزل منازل الحقيقة، وقارن أحكام الشريعة ، فاذا فعل ذلك فهو صوفى ، لأنه قد صوفى ](١) •

وقال بندار بن الحسين [ الصوفى من اختاره الحق لنفسه فصفاه ، وعن نفسه برأه ، ولم يرده الى تعمل وتكلف بدعوى ](٢) •

ويقـــول أبو على الروذبارى [ الصوفى من لبس الصـــوف على الصفاء ، وأطعم الهوى ذوق الجفاء ، وكانت الدنيـــا منه على القفا ، وسلك منهاج المصطفى ](٣) •

وأجاب سهل بن عبد الله التسترى عن من هو الصوفى ؟ •

فقال [ من صفا من الكدر ، وامتـــلأ من الفكر ، وانقطع الى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر ](٤) •

ويقول الجنيد [ الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها الا كل مليح ](٥) •

ونختم هذه التعريفات المختارة بقول أبى تراب النخشبى [ الصوفى لا يكدره شىء ، ويصفو به كل شىء ](٦) •

ولنـــا وقفة مع التعاريف الســـابقة نلاحظ من خلالهـــا أن الأمر المشترك بينها جميعا ، والسمة البـــارزة التى تميز الصوفى عن غيره من بنى البشر هى الصفاء •

---

(١) اللمع ص ٤٧ •
(٢) التعرف ص ٣٤ •
(٣) نفس المرجع •
(٤) نفس المرجع والصفحة •
(٥) الرسالة ج ٢ ص ٥٥٣ •
(٦) الرسالة ج ٢ ص ٥٥٥ •

صفاء العقل والقلب والروح • فكيـــانه كله متعلق بخالقه ، وكل ما يصدر منه فبالله ولله ، لا تشغله الدنيا بكل زخرفها عن محبوبه ولا تملك النفس الأمارة أن تفعل شـــيئا من خلاله ، وتتحفـــز النفس اللوامة ان بدت فى افقـــه لحظة ضعف ، أما النفس المطمئنـــة الراضية فهى نفسه التى هى دوما مع الله وبالله ولله تعيش •

الصـــوفى أبدا لا يملك شيئا ، وان ملك آثر غـــيره به ، وهو اذ يفعـــل ، يفر من كدورات الدنيا والعبـــودية للمال والجاه والسلطان والشهرة الى صفاء الروح •

هو يلبس الصـــوف زهدا ، ويعادى كل شهوات النفس ، ويعطى ظهره لزخارف الدنيـــا ، ويسير على طريق الله الذى أبانه رســـول الله صلى الله عليه وسلم •

هو لا يحزن أبدا على شىء ، لأنه لا يأبه بأى شىء الا فى اطار اخلاص العبودية لخالقه ، واسترسال النفس معه ، والتفكر فى ذاته عز وجل •

ونذكر هذا التعبير اللطيف الذى يزن صرفيـا كلمة صوفى فيقول [ وصـــوفى على زنة عوفى ، أى عافاه الله • وكوفى ، أى كافأه الله • وجوزى ، أى جازاه الله ](1) •

فهو معـــافى من كل كدورات النفس ، ومطالب المـــادة • ومكافأ باستمراره فى معية الله سبحانه •

والصـــوفى مفرد جمعه الصوفية وهم كما يقول عنهم أبو الحسين النورى المتوفى سنة ٢٩٥ هـ [ قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية ، وأفات النفوس ، وتحرروا من شهواتهم حتى صـــاروا فى الصف الأول

---

(١) التعرف ص ٣٤ .

والدرجة العليـــا مع الحق . فلما تركوا كل ما ســـوى الحق صـــاروا لا مالكين لا مملوكين ](١) .

ويمكننا أن نقول ان الصوفى وجمعه الصوفية هو الأصل ونهاية المطاف .

أما المتصوف وجمعه المتصوفة ففرع عن الأصل .

فالصوفى تحققت فيه كل القيم الشريفة ، وفنى عن مادته ليبقى بروحه فى عبودية كاملة لخالقه .

أما المتصوف فهو فى مجاهدات مستمرة ، فاذا نجح فى مجاهداته صار صوفيـــا والا بقى فى دائرة المحاولة [ الصوفى من فنى عن نفسه وعاش بالحق ، ومن نجا من قبضة الطبائع واتصل بحقيقة الحقائق — والمتصـــوف من يحاول الوصول لهذا المقام عن طريق المجـــاهدات ... الصوفى صاحب وصول ... والمتصوف صاحب أصول ](٢).

---

(١) فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣١ نقلا عن تذكرة الأولياء .

(٢) كشف المحجوب ص ٤٤ الهجويرى .

## رابعا: التعرف على التصوف لماذا ؟

نحن نتعرف على التصوف لهدفين : هدف معرفى ، وهدف غائى :

١ — أما الهدف المعرفى فيتلخص فى محاولتنا التعرف على معنى التصوف ، وما هى مصادره أو من أين جاء ؟ ما هى صلته بالاسلام ؟ ماذا نعنى بالمقامات والأحوال ؟ ما هى آداب الصوفية ؟ ما صلة المتصوفة بالمعارف الأخرى ؟ ما هى المدارس الصوفية ؟ وما أهم معالم كل مدرسة وأهم رجالاتها ؟ وما هو التصوف السنى ، وبأى شىء يتميز عن التصوف الفلسفى ؟ .

٢ — لقد وقع بعض الصوفية فى سلبيات مثل الحلاج ومحيى الدين ابن عربى ، هل يعنى وقوعهم أن نلغيهم كلية من تراثنا ، أم نلتمس لهم العذر فربما قالوا ما قالوه وهم فى شطح صوفى .

٣ — ولقد فهم بعض الصوفية التصوف على أنه زهد كلى فى الدنيا ، وترك للعمل وانصراف عن الأخذ بالاسباب ، وابتعاد عن الطيبات من الرزق ، وسلبية فى التعليم والتعلم وفخر أحيانا بالكرامات .

هل من الأمانة أن تنسحب كل هذه الاخطاء لتشمل التصوف والصوفية ككل ؟ أو أن من الامانة الدينية والعلمية أن نعرف لنفهم ونشير الى الخطأ والصواب ، دون اللجوء للتعميمات الفاسدة .

٤ — ما هو موقف التصوف الحقيقى من أدعياء التصوف أو ما يسمى بالطرق الصوفية المصطنعة ؟

ان الطريق الصوفى أمر واقع ، وهو طريق الله سبحانه والطرق الصوفية حقيقة .

الطريق الصوفى يبدأ بالاسلام ويمر بالايمان فالاحسان وينتهى باليقين .

والطرق الصوفية متعددة فى تكوينها ووسائلها ، لكنها تلتقى كلها فى توحيد الله سبحانه وتعالى بالصورة التى يريدها الله عز وجل بالخشوع والخضوع والطاعة والانقياد والتسليم المطلق لذاته سبحانه .

٥ — اننا بالمعرفة الصحيحة تتكون لدينا روح النقد التى نميز بها بين الحقيقة والعبث .

ان ما نراه فى الموالد من تجمعات تحت راية الصوفية ، لا يعبر من قريب أو بعيد عن حقيقة التصوف والطرق الصوفية والنقاء الصوفى .

ان ما نراه لا يليق بمجتمع اسلامى ذات تراث حضارى مزدهر بالعلوم المختلفة . انه عبث يشق الصفوف الاسلامية ويشتت وحدتها ويضعف قوتها .

اننا بمعرفة التصوف الحقيقى لا نظلم الصوفية الحقيقيين . وتتضح صورتهم أمامنا كسادة أتقياء أنقياء ، صفوا أنفسهم وعاشوا فى دنيا الناس فجملوها بأسمى المعانى الطيبة .

أما الهدف الغائى فيأتى كنتيجة موضوعية للهدف المعرفى .

فلو عدنا الى الألفاظ التى يحتمل أن يكون التصوف قد اشتق منها ، والى اجابات الصوفية عن ما هو الصوفى وما هو التصوف وما هى الأحوال والمقامات ، لخرجنا بالاهداف التى يعمل على تحقيقها الصوفية ، فهم يعملون على تصفية أنفسهم وتطهيرها من الرذائل وظلمات المادة ، ويلتزمون بالفضائل والتحلى بمكارم الأخلاق ، ومجاهدة النفس ، وينتقلون من مقام الى مقام ، وهم فى انتقالهم

يكونون دوما فى الصف الأول ، للدفاع عن دين الله ، وجعل كلمة الله هى العليا ، ويكون البعض منهم كأهل الصفة لا هم لهم الا التطهر والتذكر والتفكر ، بينما يلغى البعض ارادة ذاته حبا وفناء فى ارادة محبوبه ويرتضى البعض الآخر باللباس الخشن ، ليقوى على مجاهدة نفسه الأمارة بالسوء ، والفرار من زخرف الدنيا ، والتحلى بآداب الاسلام فى كل حركاته وأقواله وأفعاله .

اننا بالوقوف على ما يرمى اليه المتصوفة ، نطمع ونحن نعيش فى عالم مادى — طمس البصر والبصيرة ، ونشر ضبابا كثيفا حول الروح — أن ننفض الغبار الذى ران على نفوسنا ، ونزيل الصدأ عن أرواحنا ، ونكبح جماح غرورنا وغطرستنا ونتخلى عن آثار المادية بشهواتها الصاخبة ، ونتحلى بالفضائل ، ونتأدب بآداب الاسلام ، ونسلك الطريق الذى سلكه المتصوفة وصولا الى أمن الروح ومعانقتها لخالقها .

اننا بمعرفة ما عليه الصوفية من حق ، نأمل أن نتشبه بهم ، ونبتعد عن الحط من قدرهم ، والتشكيك فى أوليائهم ونتوجه لسلوك طريقهم ، لنصل للحب الحقيقى لله سبحانه وتعالى ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

روى عبادة بن الصامت عن أبى ذر الغفارى قال قلت يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم . قال : أنت يا أبا ذر مع من أحببت ، قال قلت : فانى أحب الله ورسوله . قال فانك مع من أحببت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن صفوان بن عسال قال : جاء اعرابى جهورى الصوت قال يا محمد الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [ المرء مع من أحب ] ذكره الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

ان الصوفية يتركون ما لا يعنيهم ، ويبدأون بالتوبة ويتجملون بالورع والصبر ، ويؤثرون الجوع على الشبع ، ويتركون التكبر

والتعالى ، ويتواضعون مع الكبير ويرحمون الصغير ، ويؤثرون غيرهم عليهم ولو كان بهم خصاصة ، ويشفقون على الخلق ، ويخلصون فى الطاعات ، ويسارعون دائما فى الخيرات ويجاهدون النفس ويخالفون الهوى .. (١) » .

ويأتى اعتراض يذكره الطوسى فى كتابه اللمع فى صيغة هذا السؤال ..

لم نسمع بذكر الصوفية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو اسم محدث .

والاعتراض بنفس هذه الصيغة يتردد فى كل عصر من العصور ، وهو فى عصرنا المادى أكثر ترددا .

وللاجابة نقول : ان الصحابة رضوان الله عليهم لصاحبتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفوا بأشرف اسم وهو الصحابة ومنهم ( أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين ... وما نالوا جميع ما نالوا الا ببركة الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نسبوا الى الصحبة التى هى من أجل الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التى هى أجل الأحوال )(٢) .

وينفى كون الاسم محدثا أنه عرف فى وقت الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ هـ فقد روى أنه قال : رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال معى أربعة دوانيق ، يكفينى ما معى .

وروى عن سفيان الثورى رحمه الله أنه قال :

لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء(٣) .

---

(١) اللمع ص ٢٩ للطوسى .
(٢) اللمع ص ٤٢ للطوسى .
(٣) نفس المرجع .

وأبو هاشم هذا يقال أنه توفى سنة ١٥٠ هـ .

ومما لا شك فيه أن أشرف اسم هو الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويليه ما يقترب منه وهو التابعون ، وهذا لا يعنى ان اسم التصـــوف لم يكن موجودا وانما يعنى تقــديم الأشرف وجعله أولى من الشريف أى تقــديم التسمى بالصحابى ثم التــابعى على التســمى بالصوفى .

## خامسا : المصادر الأصلية للتصوف الاسلامى

ان البحث النزيه يتطلب من الباحث أن يتجرد من الأحكام المسبقة ، وأن يتخلص من الهوى ومن الميول الشخصية والتعصب ، وأن يناقش الظواهر بعقلانية بعيدا عن الجمود والتطرف ، ويقارن بين النصوص المختلفة ، ويعتمد فى مقارنته على المصادر الأصلية لا الفرعية ولا المختلقة ، وعليه أن لا يلجأ الى التأويل الا اذا تتطلب النص ذلك بحيث لا يفهم الا اذا دخل فيه التأويل •

ومن المؤسف أن كثيرا من المستشرقين — ومن أجل تحقيق أهداف دينية أو سياسية أو اقتصادية — حينما يناقشون قضايا تتصل بالاسلام والمسلمين ، أو يتعرضون بالدراسة لأى نص دينى اسلامى ، لا يتجردون من الهوى والتعصب ، ويدخلون فى أبحاثهم بآراء مسبقة ، ويروحون فى جدية يلتمسون لهذه الآراء ما يؤيدها ، ولا يهمهم ما اذا كانت الأدلة مستقاة من مصادر أصلية أو مصادر فرعية ضعيفة • وكثيرا ما يلجأون الى التعميم واستنباط أحكام كلية من مجرد حادثة عابرة أو تشابه فى بعض الظواهر •

لهذا نراهم بصفتهم مبشرين قبل أن يكونوا مستشرقين ينتصرون للنصرانية بارجاع كل أصيل من القيم والمثل العليا الى المسيحية ، فاذا لم يستطيعوا فلا أقل من أن يرجعوه الى الفارسية الزرادشتية أو البوذية الهندية أو الأفلاطونية أو الخليط من الجميع •

( فالمدرسة الانجليزية لمشابهات عرضية حاولت أن تتلمس أصول التصوف فى المسيحية وفى الأفلاطونية الحديثة ) •

وحاولت المدرسة الفرنسية أن تبحث عن أصله فى المسيحية .

والألمانية من خلال تحليلاتها حاولت أن تبحث عن أصله فى البوذية وفى المدارس الايرانية وكذلك فعلت المدرسة الاسبانية )([1]) .

المهم عندهم قبل أى شىء وبعد أى شىء هو تفريغ الاسلام كدين سماوى خاتم لكل الأديان السماوية ، من القيم العليا ومن النقاء الروحى والتشكيك فى أسســه ومحاولات الفصل بين الاســلام كعقيدة وشريعة وأخلاق وبين حياة المسلمين .

ولو أنصفوا جميعا لفرقوا بين الثقافة التى يكتسبها الانسان وبين التصوف كظاهرة روحيــة ، ولو فعلوا ذلك منذ البداية لما دخلوا فى هذه المناقشات .

فكل شعوب الأرض يمكن أن تظهر بينها ظاهرة التصوف ، المهم أن يوجد الاستعداد الفطرى للاتجاه نحو الروحانية ويسلك الانســان طريق الصفاء ويصبر فى رحلته الشاقة حتى يصل نفسه بالله .

وآن ذاك ربما تتكشف له الحقيقــة ويصل الى الذوق الصــوفى والشعور الصوفى والمعرفة الصوفية مستمدا اياها من مصدر النور .

يقول استاذنا الدكتور عبد الحليم محمود بحق ( والنتيجة التى نريد أن ننتهى اليها اذن هى أن الاتجاه نحو التصوف والنزوع اليــه انما هو فطــرة واستعداد ، أما الذوق الصــوفى والشعور الصوفى

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام جزء ثالث ص ٢٩ دار المعارف طبعة ثامنة . القاهرة .

والمعرفة الصوفية فانها استمداد من مصدر النور والهداية )(١) ·

بعد هذا نقول : ان مصادر التصوف فى الاسلام هى القرآن الكريم وحياة الرســول ، وتشمل حياته صلى الله عليــه وسلم أقواله وأفعاله وتقريراته ، ثم حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ·

لقد زهد القرآن الكريم فى الدنيا ، وحث الناس على التخفف من الارتباط بها واعتبرها دار لهو ولعب وزينة ودار تفاخر وتكاثر وغرور يقول سبحانه وتعالى ( **اعلموا انما الحيــاة الدنيا لعب ولهو وزينــة وتفاخر بينــكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثــل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عــذاب شديد ومغفــرة من الله ورضوان وما الحيــاة الدنيا الا متاع الغــرور** ) الحديد ٢٠ ·

ويقول سبحانه ( **يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** )فاطر [ ٥ ] ويقــول عز وجل ( **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتــدرا · المال والبنــون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عنــد ربك ثوابا وخير أملا** ) الكهف الآيتان [ ٤٥،٤٦ ] ·

ويقول الرســول الكريم صلى الله عليه وسلم « **أزهــد فى الدنيا يحبــك الله وازهد فيما عند النــاس يحبك الناس** » رواه ابن ماجة · ويقول « **الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر** » رواه مسلم ·

والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تحث على التوبة والصبر والتوكل والتفكر ومداومة الذكر والعبــادة والتعرف على الحب فى أسمى معانيه

---

(١) ابحاث فى التصوف ص ٢٤١ — دار الكتب الحديثة — القاهرة ·

ففى سورة التحريم الآية [ ٨ ] يقول ( **يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا** ) ويقول فى سورة آل عمـــران الآية [ ٢٠٠ ] ( **يا أيها الذين آمنـــوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ) ويقول سبحانه فى سورة الشورى [ ٤٣ ] ( **ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور** ) ويقول عز وجل فى سورة الطلاق الآيتان [ ٣،٢ ] ( **ومن يتق الله يجعل له مخرجا • ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا** ) •

ويقول فى سورة آل عمران الآيتان [ ١٩١،١٩٠ ] ( **ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب • الذين يذكرون الله قيـــاما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ) •

ويقول سبحانه فى سورة المزمل [ ٨ ] ( **واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيـــلا** ) وفى سورة الحجر [ ٩٩ ] يقول سبحانه ( **واعبـــد ربك حتى يأتيك اليقين** ) ويقول فى سورة الكهف [ ٢٨ ] ( **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ) •

ويقول عز وجل فى سورة المائدة [ ٥٤ ] ( **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينـــه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنـــين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ) •

وفى الحديث القدسى يقول سبحانه ( **كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى** ) ومن الأحاديث التى تعتبر أساســـا للمجاهدة قول الرسول عليه الصلاة والســـلام ( **أعدى أعداؤك نفسك التى بين جنبيك** ) •

ولقد كانت حياة الرســـول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة هجرة دائمة الى الله سبحانه ، وتأمل فى الكون ، وكان عليه الصــلاة والسلام يتحنث فى غار حراء فى كل عام طيلة شهر رمضـــان ، ووجد فى التحنث راحة للروح ونقاء للنفس وتصفيـــة للقلب وظل على هـــذا الى أن جاءه ملك الوحى جبريل •

( فهذه النصوص ، مضافة الى سيرة محمد صلى الله عليـــه وسلم التى كان عليها قبـــل الاسلام وبعده ، تبين لنـــا فى وضوح وجلاء ، أن الحياة الروحية الاسلامية قد وجدت فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وفى كتاب الله وسنة رســـوله ، مصدرها الأول الذى استمد منه الزهاد زهدهم واستقى منه الصوفيـــة أذواقهم )(١) •

لقد اقتصر صلى الله عليه وسلم على ما تدعوا اليه الضرورة فى المسكن والمأكل والملبس وزهد فيما سوى ذلك •

وكانت تأتيـــه أموال الغنائم والجزية والصـــدقات فيدفعها الى المسلمين ليقويهم بها ويقول « **لو كان لى مثل أحد ذهبا لسرنى الا تمر على ثلاث ليال وعندى منه شىء الا شىء أرصده لدين** » رواه البخارى ومسلم •

لقد أتت دنانير كثيرة فقسمهـــا وبقيت منها ستة فدفعهـــا لبعض نســـائه ، لكنه لم ينم حتى قام وقسمها وقال الآن استرحت •

وتوفى صلى الله عليـــه وسلم ودرعه مرهونة عنـــد يهودى فى نفقة

---

(١) الحياة الروحية فى الاسلام ص ٤٠ ، د / محمد مصطفى حلمى • الهيئة المصرية العامة للكتاب • القاهرة ١٩٨٤ م •

عيـــاله(١) .

تقول السيدة عائشـــة رضى الله عنها [ انا كنا آل محمد لنمكث شهرا ما نستوقد نارا ان هو الا التمر والماء ](٢) ، وعن حفصة رضى الله عنها قالت : كان فراش رســـول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته مسحا نثنيه ثنيتين فينام عليــه ، فثنيناه له ليلة بأربع ، فلما أصبح قال ما فرشتموا لى الليـــلة ؟ فذكرنا ذلك له ، فقال ردوه بحاله فان وطأته منعتنى الليلة صلاتى (٣) .

ولم يعش الرسول وحده زاهدا بل زهد أقرب الناس اليه السيدة فاطمة رضى الله عنها ، كما زهد زوجاته رضوان الله عليهن أجمعين .

عاد الرسول صلى الله عليه وسلم من سفره ، ودخل على فاطمة فرأى سترا على باب منزلها ، وفى يدها قلبتين من فضـــة . فرجع ولم يدخل ، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته بما حدث ، فســـأل أبو رافع رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، فقال له من أجل الستر والسوارين ، فأرسلت فاطمة بســـواريها الى رسول الله وقالت : قـــد تصدقت بهما . فدفعهما رسول الله الى بلال قائلا له : اذهب فبعهما وادفع ثمنهما الى أهل الصفة(٤) .

وحينما طلبت زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من زينة الدنيا خيرهن عليه الصلاة والســـلام على العيش معه فى شظف وخشونة وزهد أو تسريحهن فاخترن الله ورسوله .

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج ١ ص ١٤٠ للقاضى عيـــاض دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٣،٢) نفس المرجع ص ١٤٢ .

(٤) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٠٥ لأبى حامد الغزالى .

تقول الآيات الكريمة ( **يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميــلا • وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ) الأحزاب الآيتان [ ٢٨،٢٩ ]** •

هكذا كان رســول الله صلى الله عليه وسلم قدوة ومثلا أعلا فى الزهد وهكذا كانت زوجاته أمهات المؤمنين •

وكان صلى الله عليه وسلم اذا صلى قام حتى تتورم رجلاه فقالت له السيدة عائشة رضى الله عنها يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ( **قال « أفلا أكون عبدا شكورا »)**(١) •

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه فقال ( **عرضت على الجنة والنــار فلم أر كاليوم فى الخير والشر ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا )**(٢) •

ويروى مسلم عن المقداد رضى الله عنه قال سمعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول ( **تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم لمقدار ميــل قال سليم بن عامر الراوى عن المقــداد فوالله ما أدرى ما يعنى بالميل** ؟ أمسافة الأرض أم الميل الذى يكحل به العين — فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون الى كعبيه ومنهم من يكون الى ركبتيه ، ومنهم من يكون الى حقوية ، ومنهم من يلجمه العــرق الجاما — وأشار رسول الله صلى الله عليــه وسلم الى ما فيه ) •

والرســول صلى الله عليه وسلم يقول « ما حق امرىء مسلم له شىء يوصى فيــه يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده » الحديث متفق عليــه •

---

(١،٢) الشفا جـ ١ ص ١٤٤ — ١٤٥ •

ولا نريد أن نستمر فى ذكر الآيات والأحاديث التى تؤكد القول بأن مصدر التصوف الاسلامى هو القرآن الكريم والسنة المطهرة ، لأننا لو فعلنا ذلك فسنحتاج الى مجلدات(١) .

ولقد كانت حياة الصحابة رضوان الله عليهم صورة مشرفة للزهد والصبر والتوكل والخوف والرجاء ومجاهدة النفس والتأمل الدائم والتسليم المطلق لذاته تعالى .

فهذا أبو بكر الصديق لا يزيد على ثوب واحد ويتولى الخلافة بعد رسول الله فيقف أمام الناس ليقول لهم « ان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى »ويمسك بطرف لسانه وهو يقول « هذا الذى أوردنى الموارد » ويقول ان العبد اذا داخله العجب بشىء من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة » .

وقد تحدث رضى الله عنه عن التقوى فقال « وجدنا الكرم فى التقوى والفناء فى اليقين والشرف فى التواضع »(٢) .

وهذا عمر رضى الله عنه يقول حينما تولى خلافة المسلمين « اذا رأيتم فى اعوجاجا فقومونى بسيوفكم » فهو لم يكتف بمراقبة الله له ولا بمراقبته لله سبحانه وانما أراد من الأمة أن تراقبه حتى لا يحيد .

وهو الذى قال فى حقه الرسول صلى الله عليه وسلم « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

ولقد كتب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى « أما بعد فان الخير كله فى الرضا فان استطعت أن ترضى والا فاصبر » . ويقول « وجدنا خير عيشنا الصبر » .

(١) من أراد المزيد فعليه بكتب السنة الصحيحة واحياء علوم الدين ورياض الصالحين وكتب السيرة المختلفة .
(٢) الحياة الروحية فى الاسلام ص ٢٧ .

وقد بنى حياته على الكفاف والزهد ورغم اتساع رقعة بلاد الاسلام على عهده وكثرة الغنائم الا أنه شوهد وهو ينام تحت ظل شجرة آمنا مطمئنا كما شوهد وهو يلبس ازارا فيه اثنتا عشرة رقعة .

ولقد اشفقت عليه ابنته حفصة وطلبت منه أن يوسع بعض الشىء على نفسه فى المأكل فعاتبها عتابا أليما وذكرها بحياة سيد الخلق وحياة الصديق وظل يذكرها حتى أبكاها(١) .

وعثمان بن عفان الخليفة الثالث رضى الله عنه يجهز جيش العسرة من ماله ، ويشترى بئر رومه بماله ويجعلها وقفا للمسلمين .

يروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من جهز جيش العسرة فله الجنة ) فجهزه عثمان رضى الله عنه . وقال « من اشترى بئر رومه فله الجنـة » فاشتراها عثمان وجعلها سبيلا للمسلمين بعد أن كانت ملكا ليهودى يبيع ماءها للناس .

ويروى الترمذى بسنده أن عثمان قال : هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة » فاشتريتها من صلب مالى ... قالوا اللهم نعم .

وهذا الخليفة الثالث رضوان الله عليه من العشرة المبشرين بالجنة « ومع ذلك فقد انكب على العبادات قانتا آناء الليل خائفا من المصير فى اليوم الآخر ، راجيا رحمة الله تعالى ورضاه ... ويشتد بكاؤه حتى تبتل لحيته حين يقف على أحد القبـور لأنه يذكر حديث الرسول صلى

---

(١) الزهاد الأوائل ص ٣٥ د / مصطفى حلمى نقلا عن صفة الصفوة لابن الجوزى جـ ١ ص ٦ دار الدعوة ط أولى ١٩٧٩ .

الله عليه وسلم عن القبـــر كأول منازل الآخرة وكأنه يشفق على المصير وهو فى ريب من أمره »[١] .

« وكان عثمان رضى الله عنه من رياضة نفسه على الزهد والتقشف ودوام التفكر فى الله والدأب على النظر فى كتاب الله . بحيث كان يقضى نهاره طاويا وليله محييا »[٢] .

ولقد كان على بن أبى طالب رضى الله عنه من أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم فى الدنيا حتى أنه كان يرقع ثوبه وهو أمير المؤمنين فلما قيـــل له لم هذا وأنت أمير المؤمنين ؟ قال : ليخشع القلب .

وكان رضى الله عنه لشدة ورعه وزهده وأخذه لنفسه بالعنوة يرتعد من شدة البرد فى الشتاء ، وما عليه الا سترة قديمة لا تدفىء وهو خليفة المســـلمين وتحت يده أموال المسلمين يستطيع ان شـــاء أن يأخذ منها ثمن ما يدفىء جســـده ، لكن التقشف والزهد والورع والصبـــر الذى سيطر على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المانع له .

ومع زهده وورعه وتوكله وصبره كان مثالا رائعا للشجاعة النادرة ، اشترك فى معظم المعارك الاسلامية دفاعا عن دين الله وخرج منها جميعا ظافرا منتصرا .

ولقد كان أهل الصفة صورة مشرقة للزهد والتوكل والورع والصبر والخوف من الله والرجاء فى ذاته وعبـــادته عز وجل ومجاهدة النفس والتجرد من أعراض الدنيـــا وغرورها « لم يحزنوا على ما فاتهم من

---

(١) الزهاد الأوائل ص ٤٢ د / مصطفى حلمى نقلا عن صفة الصفوة لابن الجوزى .

(٢) جمهرة الأولياء جـ ٢ ص ٣٢ لأبى الفيض المنوفى نقلا عن حليـــة الأولياء .

الدنيا ، ولم يفرحوا الا بما أبدوا به من العقبى .. استوطنوا الصفة فصفــوا من الأكدار ونقوا من الأغيــار وعصموا من حظوظ النفوس والأفكار »(١) .

ونخلص من هذا العرض الموجز الى القول بأن مصادر التصوف الاسلامى ، هو الاســلام المتمثل فى كتاب الله عز وجل المصدر الأول للعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق . وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم التى هى أقواله وأفعاله وتقريراته . ثم حياة الصحابة رضوان الله عليهم جميعا وفى مقدمتهم الخلفاء الأربعة ، وأهل صفة رسول الله صلى الله عليــه وسلم وحياة الأطهار من التــابعين ومنهم الخليفة عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه .

وما يقول به المستشرقون من أمثال جولد سيهر ونولدكه ونيكلسون وماسينيون وغيرهم لا يخرج عن محاولاتهم المستمرة من أجل ذر الرماد فى العيون وتفريغ الاسلام من قيمه العليــا واثبات الأصالة لعقائدهم والتقليد لنا .

وعلينا نحن المسلمين اذا أردنا الموضوعية ، أن نعود بعقلية ناضجة الى مصادرنا الأصليــة الاسلامية ، لنستلهم منها الحقيقــة فى تؤدة وروية .

وعلينا فى نفس الوقت أن نتخلص من هذه السلبية التى ساعدت على تسيد الأفرنج علينا .

وتقتضينا الموضوعيــة أن نقول انه بعد استقــرار الاتجاهات الصوفية الاسلامية ونتيجة للاحتكاك الثقافى الذى كثر مع كثرة الفتوحات

---

(١) جمهرة الأولياء جـ ٢ ص ٣٢ لأبى الفيض المنوفى .

الاسلامية اختلطت بعض العناصر الأجنبية بالتصوف الاسلامى « وهذا ينتهى بنا الى أن مذاهب الصوفية ترجع فى أصلها الى مصدر اسلامى غير أنها بمرور الزمن ... دخلت فيها عناصر نصرانية ... وظن أن الصوفية أخذوا أول ما أخذوا عن النصرانية .

والواقع أن مرجعهم الأول هو كتاب الله وسنة رسوله وأما الأمور الأخرى فقد ظهرت بعد ذلك »[1] .

---

(١) الحياة الروحية ص ٦٥ .

## المبحث الثـــانى

## المقـــامات والأحـــوال

تبدأ الرحلة الى الله سبحانه وتعالى عند الصوفية بأن يسلك المريد بكامل ارادته طريقا روحيـــا مبدؤه ومنتهاه القرآن الكريم والسنـــة المطهرة •

بمعنى أنه قبل الرحلة ومع بدايتها يتزود بالفهم العميق لكل آيات القرآن الكريم والفهم العميق لأقوال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته •

ومع الفهم يكون التطبيـــق الصادق الأمين فى الظاهر والبـــاطن ، بالالتزام بالأوامر والابتعاد عن النواهى ، والتخلق فى كل حركة وسكنة بأخلاق القرآن الكريم والسنة المشرفة •

ويستمر المسافر الى الله فى رحلته محتضنا كل ما جاء فى القرآن الكريم والسنة المطهرة دون غفلة ، ومتجملا بصدق النية وقوة العزيمة ، والاصرار على الابتعاد عن المعاصى وهوى النفس الأمارة بالسوء •

والطريق الصوفى الذى يسلكه المريد جوهره المقامات والأحوال •

**فما هى المقامات ؟**

المقامات جمع مفردها مقام ، والمقام بضم الميم مصدر ميمى بمعنى الاقامة ، وبفتحها اسم مكان بمعنى محل الاقامة • يقول سبحانه وتعالى **[ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ] ابراهيم — ١٤ — ويقول عز وجل [ وما منا الا له مقام معلوم ] الصافات — ١٦٤ — •**

والمقام يراد به أمر حسى تارة ، وأمر معنوى تارة أخرى ، أما الأمر الحسى فيمكن فهمه من قوله تعالى [ **واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى** ] البقرة — ١٢٥ — ومقام ابراهيم هو الموضع الذى كان فيه الحجر الذى وقف عليــه سيدنا ابراهيم وهو يبنى الكعبة المكرمة وقد أثرت قدميه عليه السلام على هذا الحجر .

أما الأمر المعنــوى فيؤخذ من قوله تعالى لسيدنا رسول الله صلى عليه وسلم [ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ] الاسراء — ٧٩ — قال المفسرون ان المقام المحمود هنا هو أمر معنوى وهو الشفاعة .

ومقام الصوفى أمر معنوى وهو المنزل الروحى الذى ينزل فيــه ويبقى حتى يستكمله ، ثم ينتقل منه الى منزل آخــر ، وهكذا يظل فى حالة ترقى وصولا الى الله عز وجل .

وهو فى كل مقام يبقى فترة تطول أو تقصر ويظل فى حالة جهاد للتخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل ولا يرحل من مقام الى آخر الا بعد استكماله .

يقول استاذنا الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله [ المقامات هى المنازل الروحية التى يمر بها السالك الى الله سبحانه ، فيقف فيها فتــرة من الزمن مجاهدا فى اطارها ، حتى يهيىء الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق الى المنزل الثانى ، لكى يتدرج فى السمو الروحى من شريف الى أشرف ... وذلك مثلا كمنزل التوبة الذى يهيىء الى منزل الورع ومنزل الورع يهيىء الى منزل الزهد ، وهكذا حتى يصل الانسان الى منزل المحبة والى منزل الرضا ](١) .

---

(١) ابحاث فى التصوف ص ١٨٩ .

والمريد فى كل منزل أو مقام من هذه المقـامات يتجمل بالصبر ، ومجاهدة النفس ، ويتحمل برضا كامل المكاره ويجتهد دوما فى العبادة ، ويحاول بكل ما أعطى من قدرات الابتعاد عن الرذائل ، والتحلى بكريم الأخلاق • ثم هو يداوم على ذكر الله وطلب غفرانه ورحمته •

**يقول الامام القشيرى :**

[ والمقام ما يتحقق به العبـد بمنازلته — أى بنزوله فيـه وبما اكتسب له — من الآداب مما يتوصل اليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف ، فمقام كل أحد موضع اقامته عند ذلك وما هو مشتغل بالرياضة له ](١) •

ويلاحظ أن للصـوفى عملا اراديا فى التوجه الى المقام والبقاء فيه واستكماله ثم الاستعداد للانتقال للمقام الذى يليه ، فالاكتساب سمة مميزة للمقامات •

ويقول الطوسى [ معناه مقام العبـد بين يدى الله عز وجل فيما يقام فيه من العبـادات والمجاهدات والرياضيات والانقطاع الى الله عز وجل ](٢) •

ويشترط الصوفيـة ألا ينتقل المريد من مقام الى مقام آخر الا بعد أن يستوفى كل ما يتصل بالمقام السابق •

فالمقامات سلسلة متصلة الحلقات توصـل كل حلقة الى الحلقـة التى تليها •

---

(١) الرسـالة جـ ١ ص ٢٠٤ وانظر التعريفات للجرجانى ص ٢٢٧ .
(٢) اللمع ص ٦٥ .

فاذا احكم المريد نزوله بالحلقة التى ينزل فيهـا ، وصحح منزله بالتصفيـة الكاملة ، أهله موقفه للترقى الى الحلقة التاليـة أو المنزل التـالى •

يقول القشـيرى [ وشرطه الا يرتقى من مقام الى مقام آخر ، ما لم يسـتوف أحكام ذلك المقام ، فان من لا قناعة له ، لا يصـح له التوكل ، ومن لا توكل له لا يصـح له التسليم ••• ومن لا ورع له لا يصح له الزهد ](١) •

والمقامات مثل : التوبة والورع والزهد والصبر والتوكل والرضا •

والمريد مثل المسافر فى دنيا الناس كلاهما على سفر ، وكلاهما يتزود فى سفره بما يعينـه على الطريق ، وكلاهما يقطع المسـافات ، وكلاهما ينزل فى نهاية السفر فى منزل ، ليستأنف الرحلة فيما بعد بكامل ارادته ، ويتجمل فى سفره بالصبر • وكلاهما يتجه نحو غاية محددة أو هدف معين •

الا أن المريد رحلته الى الله سبحانه ، وزاده تقوى الله ، والصبر فى تأدية الأوامر والابتعاد عن النـواهى ، وتحمل المكاره والتحلى بكل الفضائل •

والجهاد هو السمة المميزة للصـوفى ، جهاد النفس ، وجهـاد الشيطان ، وجهاد أعداء الله ، لا هم له الا الانتصار على هواه وشيطانه وأعداء دين الله •

والمسافات التى يقطعها تقاس بميزان التقوى بالبعد عن الأهواء والنزوات وسيطرة المادة ، ثم الاقتراب من عالم الروح والملأ الأعلى •

---

(١) الرسالة ج ١ ص ٢٠٤ •

والمقام الذى ينزل فيـــه هو نتيجة لعباداته ورياضاته ومجاهداته وتحمله وتجمله .

وليس المنزل الذى ينزل فيه للراحة والاستجمام ، وانما لزيادة المجاهدات والعبـــادات ، استعدادا للارتقاء الى مقام آخـــر من مقامات القرب من الله عز وجل والبعد عما سواه .

**ونأتى الى سؤال ماهى الأحوال ؟ :**

الأحوال نوازل تنزل بالعبد ، أو بتعبير أدق نسمات روحية تهب على المريد ثم لا تلبث أن تزول . وهى هبـــات ربانية لا تأتى نتيجـــة الرياضيات والمجاهدات وانما هى عطاء ربانى خالص .

ثم انها لا قدرة للعبـــد على استجلابها أو ابقائهـــا ، واذا زالت لا يملك بعمله اعادتها . هى [ ما يصل من الله تعالى الى قلب الانسان بدون أن يكون له قدرة على رده اذا حضر أو استحضاره اذا غاب ](١).

واذا كان المسافر فى الطريق المادى تعترضه فجأة بعض الأحداث التى لا يملك لها ردا ، ولا تخضع لارادته أو تدبيره ، فان الصـــوفى السائر فى طريق الله سبحانه تعترضه بعض الأمور الروحية التى لاتبقى طويلا بل لا تلبث أن تزول وقـــد اصطلح الصوفيـــة على تسميتهـــا أحوالا(٢) .

حكى عن الجنيـــد أنه قال [ الحال نازلة تنزل بالقـــلوب فلا تدوم ](٣) .

---

(١) كشف المحجوب ص ٢١٦ الهجويرى .
(٢) فى التصوف والاخلاق ص ١٤٢ د / عبد الفتاح بركة .
(٣) اللمع ص ٦٦ .

ويذكر الطوسى أن الحال لا تأتى عن طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات مثل المقامات • والأحوال مثل المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك(١) •

يقول الدكتور عبد الحليم محمود [ أما الأحوال فانها النسمات الروحية التى تهب على السالك فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة ، ثم تمر تاركة عطرا تتشوق الروح للعودة الى تنسم أريجه ](٢) •

**الفرق بين المقامات والأحوال :**

اذا حاولنا أن نبحث عن الفرق بين المقامات والأحوال فسوف نجد ما يلى :

أولا : المقامات مكاسب يكسبها الانسان بمجاهداته ورياضاته وعبادته ، وتحتاج دوما الى استمرار هذه المجاهدات والرياضات والعبادات •

أما الأحوال فهى مواهب أى هبات ومنح وعطايا من الله عز وجل يمنحها من يشاء من عباده متى شاء وبالكيفية التى يريدها سبحانه ، ولا تأتى نتيجة لأى عمل •

ثانيا : المقامات تدوم وصاحبها ممكن منها ، وينتقل من مقام الى مقام آخر بكامل ارادته ، اذا أحس أنه استكمل المقام الذى هو فيه •

أما الأحوال فهى ومضات واشراقات ومعان ترد على القلب فجأة دون اكتساب ثم لا تلبث أن تزول •

---

(١) نفس المرجع والصفحة •

(٢) ابحاث فى التصوف ص ١٨٩ •

يقول القشيرى [ الأحوال مواهب والمقامات مكاسب . والأحوال تأتى من عين الجواد والمقامات تحصل ببذل المجهود . وصاحب المقام ممكن فى مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله ](١) .

ثالثا : المقامات تظهر للانسان الطريق الذى قطعه المريد ، ومدى تقدمه فيه ، ومقامه أمام الله سبحانه وتعالى .

أما الحال فيعرف بمقدار الكرامة والنعمة المتفضل بها سبحانه على قلب عبده المريد(٢) .

ومع وجود هذه الفروق بين المقامات والأحوال فاننا لا نرى اتفاقا بين الصوفية لا فى عدد المقامات ولا فى عدد الأحوال ففى حين يذكر البعض مثل الطوسى أن المقامات هى التوبة والورع والزهد والصبر والفقر والتوكل والرضا(٣) .

نرى السهروردى يزيدها الى عشر باضافة الشكر والخوف والرجاء(٤) .

وتخضع الأحوال للزيادة فى العدد أو النقص مثلما خضعت المقامات .

والأمر لا يتوقف عند هذا الحد ، بل ان المقامات والأحوال تتداخل .

والسبب فى تداخلها أن القواعد التى وضعت للتمييز بينها ليست مضطردة على الدوام .

---

(١) الرسالة جـ ١ ص ٤٠٦ .
(٢) كشف المحجوب ص ٢١٦ .
(٣) اللمع ص ٦٥ .
(٤) عوارف ص ٤٣٩ .

فنحن اذا نظرنا فى قول الامام القشيرى [ ان صاحب المقام ممكن فى مقامه ، وصـاحب الحال مترق عن حاله ] فسـوف نجد أن السمة المميزة للمقامات هى الدوام والثبـات ، أما الأحوال فالسمة المميزة لها التغير والاتيان فجأة ودون ارادة الانسان .

ومع هذا فاننا نرى القشيرى نفسه يقول : ان قوما ذهبوا [ الى بقاء الأحوال ودوامها ، وقالوا : انها اذا لم تدم ولم تتوال فهى لوائح وبوادره ، ولم يصل صاحبها بعد الى الأحوال ، فاذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمى حالا — ويستشهد لما قالوه بقول أبى عثمان الجيرى الذى يقول — منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ](١) .

ويعنى هذا أن الأحوال قد تدوم ومثـل هذا القول هو الذى أدى الى التداخل .

والأمثـلة على ذلك التداخل نجد أن أبا طالب المكى والسهروردى يعتبران الخوف والرجاء من المقامات(٢) ، بينما يذكرها الطوسى ضمن الأحوال(٣) .

ويذكر القشـيرى أن أهل خراسان يعتبرون الرضـا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل . أما العراقيون فيعتبرونه من جملة الأحوال وليس بكسب للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب(٤) .

ولتوضيح الصورة وللوقوف على أمر نستريح له نذكر نصا طويلا للسهروردى حيث يقول [ قد يكون الشىء بعينه حالا ثم يصير مقاما ، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ، ثم تزول الداعية بغلبة

---

(١) الرسالة جـ ١ ص ٢٠٧ .
(٢) قوت القلوب جـ ١ ص ٢٢٥ وعوارف ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .
(٣) اللمع ص ٦٦ .
(٤) الرسالة جـ ٢ ص ٤٢٢ .

صفـات النفس ، ثم تعود ثم تزول ، فلا يزال العبـد حال المحاسبة يتعاهد الحال ، ثم يحول الحال بظهور صفات النفس الى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ، ويغلب حال المحاسبة وتنقهر النفس وتنضبط ، وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبـة وطنه ومستقره ومقامه ، فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة](١) .

ونخلص من هذا النص أن الحال سمى حالا لتحوله وعدم ثبـاته والمقام سمى مقاما لاستقراره ودوامه .

وأن الحال قد يتحول الى مقام وعلى هذه فمن نظر الى البـداية والتغير — مثل حال المحاسبة فى النص السابق — قال بأنه حال .

ومن نظر الى النهاية والثبات — كما هو فى النص السابق — قال انه مقام .

وبعد هذه المقـارنة بين المقامات والأحوال نتجه الى التعـريف بالمقامات التاليـة : التوبة . الورع . الزهد . الصـبر . التوكل . الرضا .

أما الأحـوال فسنتناولها باستفاضـة فى بحث آخـر ان شاء الله عز وجل .

---

(١) عوارف ص ٤٢٣ .

## مقـــام التـــوبة

**التوبة هى الأساس :**

أول مقـــام من مقامات السالكين فى الطـــريق الى الله سبحانه وتعالى ، المريدين لذاته عز وجل هو مقام التوبة .

والتـــوبة هى المدخل والأصل والعمود الفقرى لكل المقـــامات ، وبدونها لا يصـــل الانسان الى شىء ، تماما كالذى يريد أن يقيم بناء فهو يحتاج الى أرض ليقيم عليها الأساس ، والأرض فى البناء الصوف هى التوبة .

وكما يحتاج البناء ليستقيم وليقوى وليستمر الى صحة البدايات ، كذا تصوف الصوفى ، وسيره فى الطريق الى الله عز وجل ، يحتاج الى التوبة ، التى هى تصحيح جاد للبدايات ، حتى تسلم النهايات .

يقول السهروردى [ التوبة أصـــل كل مقام ، وقوام كل مقام ، ومفتاح كل حال ، وهى أول المقامات ، وهى بمثابة الأرض للبناء ، فمن لا أرض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له ](١) .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى [ عليكم بتصحيح التوبة ، فانها ينبنى عليها ما بعدها ، وتعود بركاتها على ما قبلها ، وما من مقام الا وهو مفتقر اليهـــا ، وما زكت الأحوال ولا قبلت الأعمال ... الا بتصحيح التوبة ](٢) .

---

(١) عوارف ص ٤٢٨ .

(٢) فى التصوف والأخلاق ص ١٤٦ د/عبد الفتاح بركة نقلا عن لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى .

ويبين الغزالى أن التوبة من الذنوب هى مبدأ الطريق للسالك ، ورأس مال الفائز ، وأول اقدام للمريد ، وهى مطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين(١) •

## التوبة لغة واصطلاحا :

والتوبة فى اللغة مجرد الرجوع يقال فلان تاب أى رجع ، والتوبة الرجوع من الذنب وفى الذنب ، ويقال تاب الى الله عز وجل أى أناب ورجع عن المعصية الى الطاعة ، وأصل تاب عاد الى الله ورجع وأناب ، وتاب الله عليه ، أى عاد عليه بالمغفرة(٢) •

والتـوبة فى الاصطلاح الرجوع عن كل ما ذمه الشرع ، والعودة الى كل ما مدحه الشرع(٣) ، والرجوع عن طريق المبعد عن الله سبحانه وتعالى الى الطريق المقرب اليه •

وهى لا تتم الا بعلم وحال وفعل [ أما العلم فهو معـرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبـد وبين كل محبـوب ، فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبـوب ، فان كان فواته بفعله تأسف على الفعـل ••• ويسمى هذا ندما • فاذا غلب هذا الألم على القلب واستـولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبـال ، أما تعلقه بالحال فبالتـرك للذنب ••• وأما الاستقبـال فبالعزم على ترك الذنب الى آخر العمـر ، وأما بالماضى فبتلافى ما فات ](٤) •

---

(١) الاحياء جـ ٤ ص ٢ •
(٢) لسان العرب جـ ١ ت و ب •
(٣) الرسالة جـ ١ ص ٢٧٦ •
(٤) الاحياء جـ ٤ ص ٣ •

فالتوبة فى حقيقتها لا تتم الا بالمعرفة الواعيـــة التامة بالذنوب ، وبأنها تبعد العبد عن ربه ، وتحجبه عن كل جميل من القيم ، وتلقى به فى التهلكة .

ومع المعرفة الحقة يأتى الندم والتألم القلبى الذى يبقى الانسان فترة مع نفســـه اللوامة ، ومع الحسرة والحزن على ما فات من عمـــر ارتكبت فيه الذنوب .

ويولد الندم الاصرار والكف الفورى عن ارتكاب أى ذنب ، والعزم المصمم على التوبة الى آخر العمر ، ومحاولة تلافى ما ارتكب من ذنوب فى ماضى الزمن .

**التوبة المقبولة :**

ويجب على العبـــد لكى تكون توبته توبة مقبولة عند الله سبحانه وتعالى .

أولا : أن لا يعصى الله سبحـــانه بترك مأمور به أو ارتكاب منهى عنـــه .

ثانيا : ان وقع فى معصية فلا يستحليها ويستمر عليها ، بل يســـارع الى التوبة منها ، والندم على تفريطه ووقوعه فيها ، ويعقد العزم على أن يعيش ما بقى له من الحياة فى طاعة مولاه .

ثالثا : أن يبقى بروحه وعقله وقلبه بين الخوف والرجاء ، الخوف من العقوبة ، والرجاء فى المغفرة والمثوبة .

رابعا : ومع الخوف والرجاء يكون الاقرار بالذنب ، واليقين بأن كل شىء مقدر من عند الله وهو سبحانه عادل حكيم فى كل ما قدر .

وعلى العبد أن يواصـــل فى كل لحظة من لحظات عمره عمل الخير والابتعاد عن الشر ويلتزم بطاعة الله عز وجل[١] •

**التوبة بين القرآن الكريم والسنة المطهرة :**

والتـــوبة مطلوبة من العبد مع كل لحظة تمر ، لأنها طريق الفلاح والفوز برضوان الله ، ولذا كان الحث عليها من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم •

يقول سبحانه [ **وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ] النور — ٣١ — أى ارجعوا اليه سبحانه بعيدا عن النفس الأمارة عسى أن تحوزوا على الفلاح والفوز •

ويقول سبحانه [ **ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ] **البقرة** — ٢٢٢ — ويقـــول عز وجل [ **يأأيها الذين آمنـــوا توبوا الى الله توبة نصوحا** ] التحريم — ٨ — أى خالصة لله لا يخالطها أى تردد ولا يلحقها أى ذنب •

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « **كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون** » رواه الترمذى وابن ماجة •

ويقول عليه الصـــلاة والسلام « **يأأيها النـــاس توبوا الى الله واستغفروه فانى أتوب فى اليـــوم مائة مرة** » رواه مسلم ، ويقـــول « **الندم توبة** » ذكره أحمد بن حنبل فى مسنده •

ويقول عليه الصلاة والسلام « **ان الله تعـــالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها** » — رواه مسلم — وفى الحديث دلالة على أهمية

---

(١) قوت القلوب جـ ١ ص ١٨٠ ابو طالب المكى دار صادر •

التوبة ، واستمرار رحمته ولطفه بعباده ، ويقول عليه السلام **« التائب من الذنب كمن لا ذنب له »** رواه ابن ماجة .

ويروى مسلم فى صحيحه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم **« لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك ، اذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك فاخطأ من شدة الفرح »**(١) .

ويروى الترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » **أى مالم تصل روحه الى حلقومه .**

### تعريف الصوفية للتوبة :

وقد عرف الصوفية التوبة بتعريفات عدة :

منها حينما سئل أبو يعقوب السوسى عن التوبة قال ( التوبة الرجوع من كل شىء ذمه العلم الى ما مدحه العلم )(٢) .

ويعلق السهروردى على هذا التعريف بقوله ( وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن )(٣) .

---

(١) والحديث مروى بروايات اخرى فى كتب السنة ، وارض فلاة اى صحراء جرداء وأيس منها اى فقد الأمل فى العثور عليها ، وخطامها بكسر الخاء اى حبلها .

(٢) اللمع ص ٦٨ .

(٣) عوارف المعارف ص ٤٤٠ .

فقد ذم العلم الايذاء والسرقة والكذب والغش والتجسس والحسد والحقد والنميمة ، وكل الرذائل الظاهرة والباطنة .

ومدح العلم كل الفضائل مثل الحب والاخلاص والوفاء والصدق والتعاون والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعدل والصفح .

فالرجوع عن الرذائل الظاهرة والباطنة والتحلى بالفضائل فى الظاهر والباطن هو التوبة .

وسئل سهل بن عبد الله عن التوبة فقال ( أن لا تنس ذنبك )(١) .

وسئل الجنيد فقال ( هى نسيان ذنبك )(٢) .

فقول سهل يعنى استحضار الذنب فى الذاكرة بصفة دائمة حتى يداوم الانسان على الندم والاستغفار وسؤال الله عز وجل العفو والمغفرة .

أما قول الجنيد فيعلق عليه الكلاباذى بقوله ( أن تخرج حلاوة الفعل من قلبك خروجا لا يبقى له فى سرك أثر حتى تكون بمنزلة من لا يعرف ذلك قط )(٣) .

بينما يعلق الطوسى فى كتابه اللمع على قول الجنيد فيقول ( أن ينسى ذنبه أجاب عن توبة المتحققين لا يذكرون ذنوبهم لما غلب على قلوبهم من عظمة الله ودوام ذكره )(٤) .

وهذا التعليق هو نفسه معنى تعريف أبى الحسن النورى فهو

---

(١) اللمع ص ٦٨ .
(٢) اللمع ص ٦٨ .
(٣) التعرف ص ١١١ .
(٤) اللمع ص ٦٨ .

يقول ( التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله تعالى )[١] .

فالتـــوبة هي الرجوع عن الذنب مع استحضاره لمداومة الاستغفار والندم وطلب العفو وهذا الأمر خاص ببداية الطريق ، أما نهايته فيعنى نسيان الذنب كلية لأنه لا شاغل للقلب سوى الله سبحانه وتعالى .

ويقول رويم [ التوبة أن يتوب من التـــوبة ][٢] ، وهذا التعريف يحمل معنى قول رابعة العدوية ( أستغفر الله العظيم من قلة صدقى فى قولى استغفر الله )[٣] .

## شروط التـــوبة

وللتوبة شروط فان كانت المعصية بين العبد والرب سبحانه وتعالى ولا تتعلق بأحد من البشر فللتوبة منها شروط ثلاثة :

الأول : أن يقلع الانسان كلية عن المعصية .

الثانى : أن يندم ويواصل الندم على فعلها .

الثالث : أن يعزم عزما صادقا بنية أكيدة ألا يعود الى المعصية أبدا بذاتها أو بمثلها .

ولابد فى خطواته هـــذه أن يطلب العون من الله سبحانه وتعالى ، ويثق ثقة كاملة بأنه عز وجل نعـــم المعين ويستحضر معنى الآية الكريمة **( قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم )** الزمر — ٥٣ — .

---

(١) اللمع ص ٦٨ .
(٢) اللمع ص ٦٨ .
(٣) عوارف المعارف ص ٤٣٩ .

أما اذا كانت المعصية تتعلق بانســـان مع آخر فللتوبة منها نفس الشروط السابقة مع اضـــافة شرط رابع : وهو أن يبرأ من حق صاحبها بأن يعيـــد المال اليه ، اذا كان الأمر يتعلق بمال أخذه منـــه ، أو يطلب التأجيل اذا كان فى حاجة الى ذلك أو العفو اذا كان عاجزا •

ولا بد من موافقة ورضا الطرف الآخر •

وان كانت حد قذف أو نحوه مكنه منه أو طلب عفوه(١) •

يذكر القشـــيرى أن أصحاب الأصول من أهل السنة اشترطوا لكى تصح التوبة شروطا ثلاثة :

١ ــ الندم على ما عمل من المخالفات •

٢ ــ ترك الزلة فى الحال •

٣ ــ العزم على ألا يعود الى المعاصى •

وما ذكر فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم من أن [ الندم توبة ] فالمعنى أن معظم أركان التوبة الندم •

ثم يذكر أن من المحققين من قال يكفى النـــدم لتتحقق التوبة ، لأن الندم يستتبع الركنين الآخرين أى ترك الخطأ والعزم على عدم العودة الى الذنب(٢) •

واذا أراد التـــائب أن يغلق باب العودة للذنب فما عليـــه الا أن يعادى الشيطان فى سره وعلانيته وفى قوله وفعله •

---

(١) رياض الصـــالحين ص ١٠ ، ١١ للنـــووى دار الكتاب الاسلامى بالقاهرة •

(٢) الرسالة جـ ١ ص ٢٧٦ •

كما أن عليه أن يتجنب البيئة الفاسدة ، ويبتعد عن اخوان السوء ، يقول أبو طالب المكى [ ينبغى للتائب المنيب أن يبدأ بمباينة أهل المعاصى ثم بنفسه التى كان يعصى الله تعالى لها ](١) .

وفى الاخلاص فى تأدية الشعائر التعبدية خير معين له على التوبة .

**وللتوبة صور منها :**

التوبة من الذنوب وهى توبة العوام .

والتوبة من الغفلة وهى توبة الخواص .

والتوبة من رؤية العجز وهى توبة الأنبياء .

سئل ذو النون المصرى عن التوبة فقال [ توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم ](٢) .

والبون شاسع بين توبة العوام والخواص والأنبياء اذ [ شتان ما بين تائب يتــوب من الزلات ، وتائب يتــوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات ](٣) .

وفى نفس هذا المعنى يشرح الامام القشيرى كلام أبى على الدقاق الذى أجاب فيه بأن التوبة على ثلاثة أقسام : التوبة والانابة والأوبة .

يقول القشــيرى [ من تاب خوف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعا فى الثواب فهو صاحب انابة ومن تاب مراعاة للأمر لا للرغبة

---

(١) قوت القلوب جـ ١ ص ١٨١ .
(٢) التعرف ص ١١١ .
(٣) الرسالة جـ ١ ص ٢٨٤ .

فى الثواب أو لرهبة فى العقاب فهو صاحب أوبة ](1) .

فالتـوبة صفة للمؤمنين يقول سبحانه وتعالى [ **وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ] النور — ٣١ — .

والانابة صفة للأولياء والمقربين يقول سبحانه [ **من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب** ] ق — ٣٣ — .

والأوبة هى صفة للأنبياء والمرسلين يقول عز وجل [ **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب** ] ص — ٣٠ — .

وقد سئل الحسن المغازلى عن التوبة فقال للسائل : أى توبة تعنى توبة الانابة أم توبة الاستجـابة ؟ أما توبة الانابة فهى أن تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك . وأما توبة الاستجابة أن تستحى من الله لقربه منك(2) .

وللتوبة حالان كما يرى السهروردى :

الأول : حال الزجر وهو مفتاح التـوبة ، والزجر هيجان فى القلب أى توتر وقلق داخلى ، لا يسكنه الا الانتباه من الغفلة فيرده الى التيقظ، فاذا تيقظ عرف الحقيقة وفرق بين الحق والباطل .

**الثانى : حال الانتباه :**

وللانتباه علامات كما يرى أبو يزيد ، وهى اذا ذكر نفسه افتقر ، أى أحس بالحاجة الشـديدة وبأنه ضعيف كسـير لا حول له ولا قوة الا بربه .

---

(1) الرسالة ج ١ ص ٢٨١ .
(2) عوارف ص ٤٣٩ .

واذا ذكر ذنبه أحس بالندم الشديد ، وواصل الاستغفار .

واذا ذكر الدنيا اعتبر ، وعلم أنها دار فناء وغرور ولهو .

واذا ذكر الآخرة استبشر ، لأنها دار البقاء الدائم .

واذا ذكر المولى اقشعر خوفا من تقصيره فى حق الله سبحانه وتعالى وشعورا بعظمته عز وجل .

ويأتى سؤال :

ماذا يفعل التـائب اذا تاب من ذنب لكن هذا الذنب كلمـا خطر بنفسه ، أو حدثه غيره عنه ، أو شاهد مثله فانه يحس فى داخله بحلاوته؟

لقد سئل هذا السـؤال سهل التسترى فقال : الحـلاوة طبع البشرية ، ولابد من الطبع ، وليس للانسـان فى مثل هذه الحالة الا أن يتجه الى الله سبحانه وتعالى بالشكوى ، ويعترف بضعفه أمام خالقه ، وأن لا حول ولا قوة الا به سبحانه .

وعليـه أن ينكر بقلبه ، ويلزم نفسه الانكار ولا يفارقه ، ويدعو الله سبحانه وتعالى أن ينسيه هذا الأمر ويشغله بذكره وطاعته .

وهذا الذى ذكره سهل التسترى [ كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته ](١) .

والصـدق فى التوبة يوصـل الى نقاء الروح ، وصفـاء القلب ، والشعور بالسعادة ، والتفانى فى عمل الخير ، والتسليم الكامل لأمر الله سبحانه وتعالى .

---

(١) عوارف ص ٤٣٩ .

كما يوصل الى مقام أو منزل آخر من المقامات الروحية وهو مقام الورع •

ويأتى سؤال آخر وهو أن الانسان يتوب من الذنب ثم توقعه نفسه الأمارة فيه مرة أخرى أو فى غيره فماذا يفعل ؟

يقول الحارث المحاسبى : ان هذا الشخص خوفه ضعيف ، وحذره قليل ، وهو قريب العهد بالجهالة والزلل ، طويل العادة والألفة للمعاصى ، قليل العناية للمراقبة والصدق(١) •

وعلى هذا الانسان أن لا ييأس من رحمة الله وعفوه ومغفرته وله أن يداوم على الخوف ، والرجاء من ذاته عز وجل ، أن يصحح له التوبة ويتيقن من أنه سبحانه وتعالى يراه ، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور •

وعليه أن يفكر فى ذنوبه وما أعد لكل ذنب من عذاب أليم ، وأن هذه الذنوب تحول بينه وبين الثواب العظيم •

وعليه أن يتذكر الموت وأنه بعد الموت سيفارق الأحبة ، وسيترك وحده لا أنيس ولا جليس معه الا عمله •

ويتذكر البعث يوم يخرج الناس سراعا من قبورهم ليقفوا أمام الذات العلية ليحاسبوا على ما عملوه فى دار الغرور والابتلاء •

**( يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم • فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ) الزلزلة — ٦ — ٨ — •**

ثم أن عليه أن يقلع للفور عن ذنبه ، ويستغفر ربه ، ويمنع نفسه

---

(١) الرعاية ص ٢٤١ المحاسبى .

الأمارة بالسوء من نيل ما تريد ، ويصبر على عنادها وما تسببه له من معاناة ، ويحزن ويندم على ضعفه أمام هواه ، ويخلص فى عزمه واصراره على التوبة ويصدق مع الله سبحانه .

ويقوى على ضعفه ونفسه الميالة للهوى وشيطانه المغوى بخصلتين.

احداهما : قطع كل سبب يكون عنه زوالك وفتنتك الا سببا يجب عليك الاشتغال به أو سببا هو عون لك على طاعتك لربك عز وجل .

الخصلة الثانية : قلة المكث بعد الزلل والمسارعة الى الاقلاع قبل أن تألف النفس المعصية(١) .

ان الابتعاد عن كل الأسبـــاب التى تؤدى الى وقوع الانســـان فى الخطيئة أمر ضرورى فى تحقق التوبة واستمرارها ، ومن هذه الأسباب البيئة الفاسدة واخوان السوء والجمود الفكرى .

وعلى المذنب أن يقلع فورا عن معصيته ويتجنب كل الدواعى التى تدفعـــه اليها ، قبل أن تتعود عليهـــا النفس فتصير الفا لهـــا يصعب التخلص منها .

---

(١) الرعاية ص ٢٤٢ المحاسبى .

## مقام الورع

الورع مقام شريف يأتى بعد مقام التوبة ، فبعد توبة الانسان من ذنوبه توبة نصوحا ، وعقده العزم على أن لا يعود لذنب أبدا ، وأدائه لحقوق الله عز وجل وحقوق الناس ، فانه يصعد فى مدارج السالكين الى منزل آخر يقرب الى الله سبحانه وهو منزل الورع ٠

### الورع لغة واصطلاحا :

والورع فى اللغة يعنى التحرج نقول تورع عن كذا أى تحرج ، والورع بكسر الراء هو الرجل التقى المتحرج ، الورع فى الأصل الكف عن المحارم والتحرج ثم استعير للكف عن المباح والحلال(١) ٠

والورع فى الاصطلاح هو اجتناب الانسان للشبهات حتى لا يقع فى محظور ، وتوقفه عن أى شىء فيه شبهة ، وأخذه بما هو واضح فى حله أو اباحته باللفظ الصريح دون تأويل أو تعليل ٠

وقيل الورع ترك كل شبهة تؤول الى حرج ٠

### الورع فى السنة المشرفة :

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « **ان الحلال بين وان الحرام بين وبينهما مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وان لكل ملك حمى ، ألا وان حمى الله محارمه ، ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله وهى القلب** » متفق عليه ٠

---

(١) لسان العرب لابن منظور ورع ٠

فالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يبين أن الحلال واضح وهو كل ما أمر الله به وجعله للانسان دون أى قيد ، وأن الحرام واضح وهو كل ما نهى عنه سبحانه ، وبين الأمرين أمور أخرى لا هى بالحلال البين ولا بالحرام البين .

ومن الورع أن يتجنب الانســـان هذه الأمور المشتبهات ، دون أن يلجأ الى أى تأويل أو تفســير ، وبذا يسلم من الوقوع فى المحذور أو الخطيئة .

واذا شك الانسان فى أى شىء فليترك ما شك فيه ، وليأخذ بما هو واضح الحل وليس فيه ريبة .

يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى حديث يرويه الترمذى [ **دع ما يريبك الى ما لا يريبك** ] أى اترك ما تشك فيه وخذ مالاتشك فيــه .

وأساس النجاح فى دنيا الناس ، وسلامة الدين للانسان انما يكون بالورع . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث يذكره ابن ماجة فى سننه [ **يا أبا هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس ، وكن قنعا تكن أشكر الناس ، وأحب للنـــاس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا ، وأحسن جوار من جاورك تكن سالما ، وأقل الضحك فان كثرة الضحك تميت القلب** ] .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم وجد تمرة فى الطريق فقال [ **لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها** ] متفق عليــه .

ويقول صلى الله عليه وسلم [ **لا يبلغ العبـــد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس** ] رواه الترمذى وحسنه .

وفى هذا المعنى نجد أبا بكر الصديق رضى الله عنه يقول [ كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام ](١) ٠

**الورع والصوفيـــة :**

وللصوفيـــة أقوال فى الورع تكشف عن حقيقته ، وتوضـــح بعض صوره يقول القشيرى [ترك الشبهات هو الورع](٢) وفى نفس هذا المعنى يقول ابراهيم بن أدهم [ الورع ترك كل شبهة ، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات ](٣) أى ما لا تدعو اليه حاجة دينية ٠

ويقول الشبلى [ الورع أن تتورع عن كل ما سوى الله ](٤) ٠

ويبين الدارانى أن مقام الورع هو المدخل لمقام الزهد ٠

أما يحيى بن معاذ فيوضـــح أنه لا يصل الى الجليل من العطـــاء سواء أكان عطاء دنيويا أو أخرويا من لم ينظر فى الدقيق من الورع ٠

ويذكر أن للورع وجهين [ ورع فى الظاهر وهو ألا يتحرك الا لله ، وورع فى الباطن وهو ألا يدخل قلبك سوى الله تعالى ](٥) ٠

**أهل الورع على ثلاث طبقات :**

الأولى : من تورع عن الشبهات ـــ أى اجتنبها وكف عنها ـــ التى اشتبهت عليـــه ، وهى ما بين الحلال البين والحرام البين ، وما لا يأخذ اسم الحلال على الاطلاق أو الحرام على الاطلاق فهو وسط بينهما ٠

فصـــاحب هذه الطبقة يردد مع ابن سيرين ليس شىء أهون على

---

(١) الرسالة ج ١ ص ٣١٤ ٠
(٢) الرسالة ج ١ ص ٣١٦ ٠
(٣) الرسالة ج ١ ص ٣١٦ ٠
(٤،٥) نفس المرجع والمكان ٠

من الورع اذا رابنى شىء تركته — أى اذا شككت فى شىء فانى أسارع بالابتعاد عنه — وأصحاب هذا الورع هم غالبية البشر .

الطبقة الثانية : من يتورع عما يقف عنه قلبه ، ويحيك فى صدره عند تناولها — أى الشبهات — فبمجرد أن يحس فى داخله بأى شك أو لوم فانه يتوقف فورا ، ويتجنب الأمر كلية ، تنفيذا لما يشـير به قلبه وهو بذلك يتمثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم [ **البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس** ] **رواه مسلم** .

وقوله عليه الصلاة والسلام « **استفت قلبك وان أفتاك المفتون** » رواه أحمد والدارمى .

وهذا لا يعرفه الا أرباب القلوب والمتحققون وورعهم يسمى ورع الخواص . أى الخصوص من النـاس وهم المتحققون وأصحاب القلوب النـيرة . .

يحكى عن الحارث بن أسد المحاسبى أنه كان لا يمد يده الى طعام فيه شبهة ، ولقد كان على طرف أصبعه الوسطى عرق اذا مد يده الى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق فيعلم أنه غير حلال .

ويروى أن مبشرا الحافى دعى الى لطعام فمد يده اليـه فلم تمتد ، وحاول مرارا فلم يفلح فى محاولاته .

فقال رجل يعرف أحوال بشر وأن يده لا تمتد الى شىء فيه شبهة ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الشيخ .

ولقد قام الصوفى صالح حمدون باطفاء السراج بعد موت مالكه — أى مالك السراج — لأن الدهن الذى يشعله أصبح ملكا للورثة .

وظل كهمس يبكى أربعين سنة لأنه أعطى ضيفه قطعة طين من جدار جاره ليغسل بها يده •

انه الورع الميزان الدقيق والذى نحن فى عصرنا الحديث فى أشد الحاجة له •

أما الطبقة الثالثة : فهم العارفون والواجدون وهم أولئك الذين يتورعون عن كل ما يشغلهم عن الله سبحانه وتعالى •

يقول أبو سليمان الدارانى كل ما شغلك عن الله فهو مشئوم عليك•
وسئل الشبلى عن الورع فقال أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله عز وجل •

وأصحاب هذا الورع هم خواص الخواص(١) •

**أقسام الورع :**

وينقسم الورع الى ورع فى اللسان وورع فى القلب وورع فى الفعل •

أما ورع اللسان فيكون بكفه عن اللغو حتى لايقع فى النطق بمحظور أو مكروه ، أو يوقع غيره بكلماته فى أى اشتباه ، كأن ينطق بكلمة تحتمل تأويلات عدة فيأخذها آخر بتأويل من هذه التأويلات فيقع فى محظور دينى •

يقول سبحانه ( **والذين هم عن اللغو معرضون** ) المؤمنون — ٣ —
ويقول معروق الكرخى ( احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم )(٢)

---

(١) اللمع ص ٧٠ للطوسى ، والرسالة القشيرية جـ ٢ ص ٣١٨ — ٣٢٠.
(٢) عوارف ص ٤٤٠ •

ويقول الخواص الورع ( أن لا يتكلم العبد الا بالحق رضى أو غضب وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى )(١) .

وورع القلب يكون بالانصراف كليـة الى الله عز وجل وعـدم الانشغال بغيره عن ذاته عز وجل ، وابعـاد كل الخواطر التى تصرف القلب عنه سبحانه .

أما الورع فى الفعل فيكون بالتأكد من أن الملبس والمأكل والمشرب والمسكن والمنكح كلها من حلال طيب .

يقول ابراهيم بن أدهم الورع ترك كل شبهة وترك ما لا يعنيك .
ويبين الخواص أن [ الورع دليل الخوف والخوف دليـل المعرفة والمعرفة دليل القرب ](٢) .

ومع استيفاء الانسـان المريد لمقام الورع فانه ينتقل الى درجة أخرى من درجات السمو الروحى وهذه الدرجة هى مقام الزهد .

يقول أبو سليـمان الدارانى [ الورع أول الزهد كما أن القنـاعة طرف من الرضا ](٣) .

---

(١) عوارف ص ٤٤١ .
(٢) عوارف ص ٤٤٠،٤٤١ .
(٣) عوارف ص ٤٤٠،٤٤١ .

## مقام الزهد

اذا صحت توبة المريد ، واجتنب كل الشبهات ، فانه ينتقل فى مدارج الكمال الروحى والتصفية النفسية الى مقام الزهد •

وهو مقــام شريف يتوسط المقامات فهو مسبــوق بالتوبة والورع وملحوق بالصبر والتوكل والرضا •

### معنى الزهد :

والزهد ضد الرغبــة والحرص على الدنيا نقول زهد فى الشىء وعن الشىء اذا انصرف عنه ولم يرغب فيه ولم يحرص عليه(١) •

وانصرافه عن الشىء قد يكون لتحوله أو لرغبته فيما هو خير منه •

فأخوة يوسف حينما باعوا أخاهم بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيــه من الزاهدين ، انما كانوا صارفين الرغبــة عن أخيهم وراغبين فى نفس الوقت فى خير منه فى نظرهم وهو حب أبيهم لهم وحدهم •

وعلى هذا فان زهد الانسان فى الدنيا انما يعنى انصراف الرغبــة عنها ، وعدم الارتكان اليها كلية ، وذلك حبا فى نعيم الآخرة وتطلعا لما فيها من نعيم دائم •

يقول أبو حامد الغزالى ( الزهد عبــارة عن رغبة عن الدنيا عدولا الى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا الى الله تعالى •••

والذى يرغب عن كل ما سوى الله تعالى ••• فهو الزاهد المطلق • والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ، ولم يزهد فى تلك الحظوظ

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج ٣ ز هـ د •

فى الآخرة بل طمع فى الحور والقصـور والأنهار فهو زاهد ولكنه دون الأول )([1]) .

ويشترط فى الزاهد لكى يتحقق زهده أن يكون المزهود فيه واقعا تحت قدرته ، فان ترك ما يعجز عن تحقيقه ليس بزهد ، ولهذا حينما قيل لابن المبارك يازاهد اعترض على ذلك وقال انما الزاهد عمر بن عبد العزيز اذ جاءته الدنيا راغمة فتركها([2]) .

فعمر بن عبد العزيز تولى خلافة المسلمين وتحت يده السلطة والجاه لكنه لم يحفل بهما ولم يغتر ، وكان لا يرى الا معرضا عن توافه الدنيا ومحتقرا لها ومنصرفا عن غرورها .

واذا لم يكن الشىء واقعـا تحت قدرة الانسان ، أو لم يكن فى ملكيته فان زهده فيه لا معنى له ، لأنه زهد فى معدوم والزهد فى المعدوم باطل([3]) .

والانصراف والاعراض لا يكونان عن الحرام أو ما فيـه شبهة ، فهذا تركه واجب ، وانما يكونان عن الحلال وما هو تحت قدرة الانسان تهذيبـا للنفس وتحقيقا لنفع الآخرين ، يقـول سبحانه ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) الحشر — ٩ — .

ولقد عرف العرب فى الجاهلية الزهد ، وعرفه المسلمون ورأوه فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى حيـاة الصحابة رضوان الله عليهم جميعا ، وبخاصـة الخلفاء الأربعة الصـديق وعمر وعثمان وعلى ثم الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز .

---

(١) الاحياء ج ٤ ص ٢١٢ .
(٢) الاحياء ج ٤ ص ٢١٢ .
(٣) قوت القلوب ج ١ ص ٢٤٩ لأبى طالب المكى .

وعرفوه حينما كثرت الفتوحات الاسلاميـــة ، وتلهى البعض بوفرة المال واندفع للبـــذخ ، وكان رد الفعل هو انصراف بعض الأتقيــاء من المسلمين عن توافه الدنيـا وعدم الاغترار بها ليقينهم بأن ما عنـــد الله خير وأبقى .

## الزهد بين القـــرآن الكريم والسنة المطهرة

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة توضح حقيقة الحيـاة الدنيا وتبين أنها دار لهو وتفاخر وزينة وغرور ، وأنها دار ابتلاء واختبار .

والفائز من يأخذ منها بحذر ويتحرك فيها على بصـــيرة ، ويرتفع بنفسه عن زاهوها وزخرفها .

يقول سبحانه وتعالى ( **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا . المال والبنون زينة الحيـــاة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ) الكهف — ٤٥ ، ٤٦ — .

ويقول سبحانه ( **زين للنـــاس حب الشهوات من النســـاء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ) آل عمران — ١٤ — ويقول عز وجل ( **وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون** ) العنكبوت — ٦٤ — .

ولقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين على الزهد يقول عليه الصلاة والسلام « ان مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » متفق عليه .

ويقول « ان الدنيـا حلوة خضرة وان الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » رواه مسلم .

ويقول صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا فى الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه فى اليم فلينظر بما يرجع » رواه مسلم .

ويقول ( الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ) رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال نام رسـول الله صلى الله عليه وسلم على حصير ، فقام وقد أثر فى جنبه ، قلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء — أى فراشا وطيئا — فقال « مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » رواه الترمذى .

**الزهد والحيـاة :**

بعد معرفتنا لمعنى الزهد نسأل هل يعنى الزهد ألا نأخذ مما أحله الله سبحانه وتعالى من مأكل وملبس ومشرب ومسكن ومنكح ؟

هل التقوى الحقيقيـة والزهد الحقيقى ضد الامتـلاك للمال أو العقار ؟

ويقول الرسـول صلى الله عليه وسلم « اذا لقيتم الرجل قد أوتى زهدا فى الدنيا ومنطقا فاقتربوا منه فانه يلقن الحكمة » رواه ابن ماجة .

هل يعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم — قد أوتى زهدا فى الدنيا أى أعرض عن طيباتها ولزم الخلوة وابتعد عن حياة الناس ؟ هل الملكية فى الاسلام غير مرغوبة ؟

اننا نسارع بالقول : ان الدنيا خلقت للانسان ، وقد ذلك وعبد كل ما فيها لخدمته ، وأمر بالسير الجاد والحركة العاقلة فيها بقوله سبحانه

**( فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ) الملك — ١٥ — ويقول ( قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ) الأعراف — ٣٢ .**

والدنيا فى مفهوم الاسـلام هى دار ابتلاء واختبـار وامتحان ، والابتلاء كما يكون فى المنـع يكون أيضا فى العطاء ، وكما يكون بالفقر يكون أيضا بالغنى وكما يكون بالمرض يكون أيضا بالصحة وهكذا .

فالمال مال الله يعطيه لمن يشـاء ويمنعه عمن يشاء ، والتملك على هذا مباح فى الاسلام بشرط أن يكون من حلال ، وأن ينفق فى حلال ، وأن يتـذكر صاحب المال حق الله سبحـانه ، ويقوم بدفعه للفقـراء والمساكين ، ولا يركن لماله ولا يغتر به ولا يبعده ماله عن التفكر فى الله والانقياد لأوامره والخشوع والخضوع والطاعة لذاته سبحانه .

وأن يأخذ من المال بحذر ليقينه بأنه مال الله ولقناعته بأن ما عند الله سبحانه خير وأبقى وأن الدنيا دار غرور وابتلاء .

والاسلام يريد المؤمن القوى السوى ، القوى فى دينه وبدنه وعقله، والسوى فى أخلاقه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » رواه مسلم ، ولا يكون المؤمن قويا بانصرافه عن العمل وامتداد يده للغير فالرسول يقول « اليد العليا خير من اليد السفلى » واليـد العليا هى التى تعطى ولا تعطى الا اذا ملكت ولا تملك الحلال الا بالعمل .

ولقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم صورة مشرقة لمن أراد أن يعرف الحقيقة — لقد تزوج صلى الله عليه وسلم وأنجب الأولاد وعاش حياة الناس ، وقوى الجيش ، وعبد ربه ، وتخلق بالخلق الكريم وأخذ بالأسباب مع يقينه بأنها لا تنفع الا بارادة الله سبحانه وتعالى .

ومع هذا فقد كان صلى الله عليه وسلم زاهدا فى الدنيا ، وهو القائل

« ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » رواه ابن ماجة .

ولا يعنى الزهد الاســلامى الرهبنة ، فلا رهبانية فى الاسلام .

ولايعنى أيضا الانصراف عن الدنيا بالصوم الدائم والقيام الدائم، وعدم التزوج .

ولنتأمل النص التــالى [ جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبــادته صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروها كأنهم تقالوها — أى عدوها قليلة — فقالوا وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم أما أنا فأنا اصلى الليل أبدا .

وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبدا .

فجاء رســول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله انى لأخشــاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النســاء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ] رواه البخارى .

ان مفهوم الزهد الاسلامى لا يعنى التخلى عن الدنيا كلية فالاسلام لا يرضى بالضعف والمسكنة والمذلة والضياع والتسفل .

لقد كان رسولنا صلى الله عليه وسلم من أزهد خلق الله ومع ذلك تزوج [ تسع نسوة . وكان على بن أبى طالب وعبــد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعثمان بن عفان رضى الله عنهم من الزهاد مع ماكان

لهم من الأموال ... وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد مع مال كثير ، وكان الليث بن سعد من أئمة الزهاد وكان له رأس مال كبير ](١) .

ان الزهد الاسلامى يعنى الأخذ من الدنيا بقدر دون التكالب عليها والاغترار بها ، ولا ننسى ونحن نأخذ من دنيانا أن الآخرة خير وأبقى يقول سبحانه [ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ] القصص — ٧٧ — .

ان الزهد الاســلامى لا يعنى تطليق الدنيا ، لكنه فى نفس الوقت لا يعنى أن يكون هم الانســان هو الدنيا ، بل يجب أن تكون الآخرة نصب عينيه فى كل تصرفاته فى دنيا الناس .

يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره ، وفرق عليــه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له .

ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة » رواه ابن ماجة .

ان الزهــد هو ألا يفرح الانســان بما أوتى ، وألا يحــزن على ما فقد ، وأن يخلو القلب من حب الدنيا حتى وان ملكها كلها .

**الزهد والصوفية :**

يقول سفيان الثــورى [ الزهد فى الدنيا قصر الأمل ، وليس بأكل الغليظ ولبس الخشن ](٢) .

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٣ ابن قيم الجوزية .

(٢) الرسالة جـ ١ ص ٣٢٦ .

وذلك لأن من يميـــل للشهوات يتعلق بالدنيا ، ويتمنى أن يطول بقاؤه ، أما من يقصر أمله فكأنه ينصرف عن الدنيا وشهواتها .

ويقول ابن الجلاء ان الزهد [ هو النظر الى الدنيـــا بعين الزوال لتصغر فى عينيك فيسهل عليك الاعراض عنها ](١) .

والقنـــاعة زهد ، لأن القانع لا يأخذ من دنيـــاه الا قدر حاجته ، وتعزف نفسه عن الجرى وراء ملذاتها .

والابتعاد عما فى أيدى الناس ، وعن أقوالهم ، وعدم التطلع اليهم وانتظار ثنائهم زهد . فالزاهد مشدود لله سبحانه لا هم له سوى الله عز وجل لا يطرب لمدح الآخرين بل ولا يسمع لهم .

ويقول الجنيـــد [ الزهد خلو الأيدى عن الأملاك ، والقلوب عن التتبع ](٢) ، فالزاهد لا يمتلك ، وان امتلك فما يمتلكه لغيره ، ولا تأثير لما يمتلكه على سيره فى الطريق الى الله سبحانه .

وهو مع عدم التملك لا يتطلع الى ما يملكه الغير ، وقناعتـــه دائما أن المالك على الحقيقة هو الله عز وجل .

ويقول أبو نصر السراج [ ان حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة ](٣) ، لأن الدنيا فانيـــة ولذاتها موقوتة ، أما الآخرة فباقيـــة وخيرها دائم ، ويخسر كثيرا ذلك الذى يبيع الدائم بحبه وارتمائه فى أحضان المؤقت .

وقد سئل الشـــبلى عن الزهد فقال [ ان تزهد فيما ســـوى الله

---

(١) الرسالة جـ ١ ص ٣٢٦ .
(٢) التعرف ص ١١٢ .
(٣) اللمع ص ٧٣ .

تعالى ](١) ، أى يكون انصرافك كلية عن كل ما يشغلك عن الله عز وجل .
وفى نفس هـذا المعنى يقول أبو سليمان الدارانى [ الزهد ترك ما يشغل عن الله سبحانه وتعالى ](٢) .

ويقول أبو عثمان [ الزهد أن تترك الدنيا ثم لا تبالى بمن أخذها ](٣) .

فالزاهد الحقيقى عند الصوفية هو الذى ينصرف عن حظوظ الدنيا ، ولا ينشغل بمتابعة من يأخذها ، بل جل همه التوجه الى الله سبحانه .

وفى نفس هذا المعنى يجيب سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه عمن سأله عن الزاهد قال [ أن لا تبالى من أكل الدنيا من مؤمن أو كافر ](٤) .

وتعريف السرى السقطى الذى سنذكره يعبر عن معنى الزهد بصورة واضحة ربما يندرج تحتها كل ما قدمنا من تعريفات ، يقول [ الزهد ترك حظوظ النفس المالية والجاهية وحب المنزلة عند الناس وحمد المحمدة والثناء ](٥) ، فحب الدنيا ، والجرى وراءها ، والتكالب على لذاتها ، وجعل الهم كله لها ، أساس كل شر ومنبع كل خطيئة ، والدافع الحقيقى للخسران .

أما الانصراف عنها والمرور بها وبزخرفها مر الكرام ، والابتعاد عن لهوها وزينتها ، فأساس كل خير ، ولذا قال الفضيل بن عياض [ جعل

(١) الرسالة جـ ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
(٢) الرسالة جـ ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
(٣) الرسالة جـ ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
(٤) التعرف ص ١١٢ .
(٥) عوارف ص ٤٤٢ .

الله الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا • وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد ](١) •

**أوجه الزهد :**

والزهد على ثلاثة أوجه كما يقول بذلك الامام أحمد بن حنبل •

الوجه الأول : ترك الحرام وهذا هو زهد العوام •

الوجه الثانى : ترك الفضول من الحلال — أى الزائد عن قدر الحاجة الضرورية — وهو زهد الخواص •

الوجه الثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين(٢) •

**درجات الزهد :**

ويذكر الامام الغزالى للزهد درجات ثلاث :

الدرجة الأولى : وهى السفلى يزهد صاحبها فى الدنيا وهو لها مشته ، وقلبه اليها مائل ، ونفسه اليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها •

الدرجة الثانية : يترك صاحبها الدنيا طوعا لاستحقاره اياها ويطمع فى نعيم الآخرة • وهذا الزاهد يرى زهده ويكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن فى نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه •

الدرجة الثالثة : وهى الدرجة العليا اذ أن صاحبها يزهد طوعا

---

(١) الرسالة جـ ١ ص ٣٣٢ •
(٢) الرسالة جـ ١ ص ٣٣١ •

ويزهد فى زهده اذ لا يرى أنه ترك شيئا لمعرفته أن الدنيا لا شىء فيكون كمن ترك حصاة صغيرة وأخذ جوهرة ثمينة فلا يرى أن فى هذا الأمر أى معارضة .

فالدنيا التى زهد فيها بالاضافة الى الله سبحانه وتعالى ونعيم الآخرة ليست بشىء على الاطلاق وهذا هو الكمال فى الزهد(١) .

ويقسم الامام الغزالى درجات الزهد بالاضافة الى المرغوب فيه الى ثلاث درجات : فالمرغوب فيه اما أن يكون النجاة من النار ، واما أن يكون الطمع فى الجنة ، واما أن يكون لقاء الله ورؤيته يوم القيامة .

فالدرجة السفلى : اذا كان المرغوب فيه هو النجاة من عذاب القبر ومن نار جهنم ومن كل الآلام فى الآخرة وهذا هو زهد الخائفين .

والدرجة الثانية : اذا كان المرغوب فيه هو ثواب الله ونعيمه فى الآخرة وأصحاب هذا الزهد تركوا الدنيا رجاء فى ثواب الآخرة وزهدهم يسمى بزهد الراجين .

والدرجة الثالثة : اذا كان المرغوب لا خوف العذاب ولا الطمع فى الجنة وانما لقاء الله ومشاهدة ذاته العلية والاستغراق فى حبه وأصحاب هذا الزهد هم المحبون العارفون ، ودرجتهم هى الدرجة العليا(٢) .

---

(١) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٢٠ .
(٢) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٢١

## مقــام الصــبر

حياة الانســان فى دنياه مليئة بالمغريات للنفس الأمارة بالسوء ، والشيطــان لا يكف عن الحركة الدائمة من أجل الاغواء والاضــلال والايقاع بالانسان واظهار الدنيا بكل زخرفها ولهوها وزينتها حلوة أمام ناظريه .

من أجل هــذه الأمور كان لابد أن تبدأ المقامات بالتـوبة ليرجع الانسان عن نفسه الأمارة وشيطانه المغوى الى الطهر والفطرة النقية .

وفى مدارج التصفية الروحية والسمو ينتقل من مقام التوبة الى مقام الورع فمقام الزهد .

وفى كل مقام من هذه المقامات يقع الانســان بين عاملين يجتذبانه بقوة ، عامل روحى يشــده الى الملأ الأعلى حيث الشفافيــة والطهر والنقاء . وعامل آخر يجذبه نحو المادة والتسفل والالتصاق بالطين .

ولكى ينتصر المريد على نفســه الأمارة بالســوء ، وعلى شيطانه المغوى والمضــل . وحتى يسلم له الطريق فيواصــل الترقى الى الله سبحانه وتعالى يلزمه لصبر .

## معنى الصبر

والصبر فى اللغة هو الحبس والكف ، يقال صبره عن الشىء يصبره صبرا أى حبسه ... والصبر نقيض الجزع ، يقول الجوهرى فى الصحاح الصبر حبس النفس عند الجزع .

ومن أسمائه تعالى الصبور لأنه لا يعاجل العصاة بالانتقام .

والتصبر تكلف الصبر(١) .

**وعلى هذا يمكننا القول : بأن الصبر هو حبس النفس ومنعها وكفها** عن الجزع عند لحوق المصيبة بالانسان حتى ينال الجزاء الحسن عند الله سبحانه يقول عز وجل **( ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور )** الشورى — ٤٣ — ويقول صلى الله عليه وسلم « انما الصبر عند الصدمة الأولى » متفق عليه .

وكذا حبس اللسان وكفه عن الشكوى عند الابتلاء ، للايمان بأن الانسان ما وجد على هذه الأرض الا للابتلاء والاختبار يقول سبحانه **( انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه )** الانسان — ٢ — ويقول عز وجل **( الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا )** الملك — ٢ — .

وحبس الجوارح عن التشويش(٢) أى منعها عن ارتكاب المعاصى ، وجعلها دائما فى طاعة الله سبحانه .

---

(١) لسان العرب ج ٤ ص ب ر .
(٢) بصائر ذوى التمييز ج ٣ ص ٣٧١ .

## الصبر فى القرآن الكريم والسنة المطهرة

ولأهمية الصبر وضرورته للانسان ذكره الله سبحانه وتعالى كثيرا فى القرآن الكريم ، وطالب المؤمن بالتحلى به ، وبشر الصابرين بالفلاح والأجر والثواب العظيم ، ومن أجل الثواب وأعظمه أن يكون عز وجل مع الصابرين .

يقول سبحانه وتعالى ( **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ) آل عمران — ٢٠٠ — اصبروا أى على الطاعات والمصائب وصابروا أى غالبوا العدو بصبركم فى مواقف الشدة دفاعا عن العقيدة الاسلامية .

قال الحسن البصرى [ امروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم وهو الاسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ، ولا لشدة ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم ... وأما المرابطة فهى المداومة فى مكان العبادة والثبات ](1) .

ويقول عز وجل [ **انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ] الزمر — ١٠ — ويقول سبحانه وتعالى ( **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين** ) البقرة — ١٥٣ — ويأمر سبحانه بأن يتواصى المؤمنون بالحق والصبر ( **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ) العصر — ٣ — .

الاسلام يريد المؤمن القوى الذى يتحمل الصدمات ، ولا يندفع للتوتر والقلق والانسحاب داخل الذات ، والذى يثق فى أن ما أصابه لم

---

(1) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٤٤٤ ابن كثير دار المعرفة بيروت .

يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، يقول صلى الله عليه وسلم [ عجبا لأمر المؤمن أن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ، ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ] رواه مسلم •

ويقول صلى الله عليه وسلم [ ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر ] متفق عليه •

ويقول عليه الصلاة والسلام [ اذا أحب الله عبدا ابتلاه ليسمع تضرعه ] ذكره البيهقى فى شعب الايمان • ويقول عليه الصلاة والسلام [ انما الصبر عند الصدمة الأولى ] متفق عليه •

## الصبر والصوفية

لقد فهم الصوفية المعنى الحقيقى للصبر ، وعرفوا أنهم بالتحلى به يحافظون على التوبة والورع والزهد ، ويقدرون على مواصلة الطريق وصولا الى أجل شىء وأسماه وهو الذات العلية •

ولهم فى الصبر أقوال ، كل قول فى حقيقته تعبير صادق عن حالة ما عليه قائله •

يقول عمرو بن عثمان الصبر [ هو الثبات مع الله وتلقى بلاءه بالرحب والسعة ](١) •

أى الالتزام بأحكام القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والبشاشة والسرور عند تلقى المصائب •

---

(١) بصائر ذوى التمييز جـ ٣ ص ٣٧٧ •

سئل الجنيد عن الصبر فقال [ تجرع المرارة من غير تعبيس ](١) أى تحمل مشاق التكاليف والابتلاءات المتعددة دون أن يداخلك أى قنوط أو جزع أو تبرم ، ثقة بأنها من عند الله عز وجل .

ويقول أبو محمد الجريرى [ الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما . والتصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة ](٢) .

فالتصبر على هذا هو المدخل الموصل للصبر الحقيقى ، وفى الصبر يسكن القلب ، وتطمئن النفس ، ويستوى عندها العطاء والمنع والفرح والحزن . وهذه درجة عالية يشير اليها الجريرى .

ويقول سهل التسترى [ الصبر انتظار الفرج من الله ](٣) ، بينما يقول آخر [ الصبر أن تصبر فى الصبر ] أى لا تطالع فيه الفرج(٤) لقوله تعالى ( **والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ) البقرة — ١٧٧ —** .

ويقول ذو النون المصرى [ الصبر التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية واظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة ](٥) .

فالصابر يلتزم بالأوامر ويبتعد عن النواهى وتسكن نفسه مع الابتلاءات ويظهر الغنى مع أنه فى فقر مدقع .

---

(١) الرسالة جـ ١ ص ٤٥٤ .
(٢) نفس المرجع ص ٤٥٦ — ٤٥٧ .
(٣) التعرف ص ١١٢ — ١١٣ .
(٤) التعرف ص ١١٢ — ١١٣ .
(٥) الرسالة جـ ١ ص ٤٥٥ .

وينسب الى على بن أبى طالب رضى الله عنــه القول بأن [ الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ](١) ٠

## أقسام الصــبر

يقسم الامام القشيرى الصبر الى قسمين :

الأول : صبر على ما هو كسب للعبيد ويدخل فى هذا القسم كل ما يؤمر به الانسان وينهى عنه أى التكاليف الشرعية بأفعل أولا تفعل فى الأقوال والأفعال ٠

أما القسم الثانى : فهو الصبر على ما ليس بكسب للعبد أى الصبر على النوازل التى تنزل على الانسان من عند ربه مثل الآلام والأسقام والبــلايا(٢) ٠

ويضيف الشيخ الجيلانى قسما ثالثا وهو الصبر على الله سبحانه وتعالى ٠

بمعنى عدم تعجل ما وعد من الرزق والنصر والفرج والدفاع عن المؤمنين ٠

يقول الجيـــلانى [ الصبر على ثلاثة أضرب أحــدها : صبر لله عز وجل وهو على آداء أمره وانتهاء نهيه ٠ وصبر مع الله عز وجل وهو الصبر تحت جريان قضائه وأفعاله فيك من ســائر الشدائد والبلايا ٠ وصبر على الله عز وجل وهو الصــبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والنصر والثواب فى دار الآخرة ](٣) ٠

---

(١) الرسالة جـ ١ ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ٠
(٢) الرسالة جـ ١ ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ ٠
(٣) الغنية جـ ٢ الجيلانى مطبعة الحلبى ط ثالثة ١٩٥٦ ٠

## درجات الصبر

وللصبر درجات ثلاث يحددها الصوفى أبو الحسن بن سالم :

الدرجة الأولى : متصبر وهو من صبر فى الله فمرة يصبر ومرة يجزع .

الدرجة الثانية : الصابر وهو من يصبر فى الله ولله ولا يجزع ولكن يتوقع منه الشكوى .

الدرجة الثالثة : الصبار وهو ذلك الذى صبره فى الله ولله وبالله فهذا لو وقعت عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة أى أن باطنه لا يتأثر بنفور أو ضجر أو حزن — لا من جهة الرسم والخلقة(١) ، وان بدا على ظاهره بعض التأثر .

ويضيف الشبلى درجة رابعة سمعها من صوفى فصرخ صرخة كادت أن تتلف روحه وهى الصبر عن الله .

وهذه الدرجة يشرحها السهروردى بقوله [ ان الصبر عن الله يكون فى أخص مقدمات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء واجلالا وتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا ... وهذا من أشد الصبر لأنه يود استدامة هذه الحال تأدية لحق الجلال ]](٢) .

وقيل ان الدرجات الثلاث للصبر هى :

الأولى : الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد وأحسن منها الصبر عن المعصية حياء .

---

(١) عوارف ص ٤٤٤ .
(٢) عوارف ص ٤٤٠ .

الثانية : الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دواما وبرعايتها اخلاصا وبتحسينها علما •

الثالثة : الصبر فى البلاء بملاحظة حسن الجزاء وانتظار روح الفرج وتهوين البلية وتذكر سالف النعم(١) •

وقد قالوا ان مراتب الصبر هى صابر وهى أعم المراتب • ومصطبر أى مكتسب للصبر • ومتصبر أى متكلف للصـــبر حامل نفسه عليه • وصبور أى عظيم الصبر وصبار أى شديد الصبر •

والفرق بين عظيم الصبر وشديد الصبر أن الأول يرجع للكيف بينما يرجع الثانى الكم(٢) •

---

(١) بصائر ذوى التمييز ج ٣ ص ٣٨١ •
(٢) المرجع نفسه ج ٣ ص ٣٧٨ •

## مقـــام التـــوكل

من المقـــامات الروحية التى ينزل بها المريد أثناء رحلتـــه الى الله سبحانه وتعالى مقام التوكل .

### التـــوكل والتـــواكل :

ونحب فى البدء أن نفرق بين أمرين وهما التوكل والتواكل ...

والذى يدعونا لهذا هو الخلط الذى يقع فيه بعض المسلمين بحسن نية أو بسوء نية ، وكذا ما نراه من افتراءات على الصوفية والتصوف .

حيث يقول البعض ان التصـــوف يدعو للخضوع والمسكنة ، وأن اتباع الطرق الصوفية يوصل حتما الى الضعف والتخلف .

وقبل التفريق يلزمنى التأكيد على القول بأننا لا نعنى بالصوفية ذلك العبث الذى نراه أحيانا فى الموالد ، وانما نعنى بهم تلك الصفوة الممتازة التى اختارت طريق التصفيـــة الروحية ، والتزمت بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهما وتطبيقا .

بعد هذه المقدمة نقول : ان التوكل أمر ايجابى يدعو اليه الاسلام ، ويعتبره نتاجا أصيلا للايمان ، والمتصف به يعيش فى كنف الله ويحس بكلاءته سبحانه وتعالى له ، لذا لا يقلق ولا يضطرب ولا يخاف ، وان ابتلى لا يجزع لثقته فى خالقه ، وعلمه أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

هو يصدق تصديقا قلبيا لا يداخله أى شك بأن الكون وما فيه ومن فيه من خلق الله سبحانه ، وهو واقع تحت الارادة الالهية ، يبقى ما يبقى فيه بمشيئته ويزول ما يزول منه بمشيئته .

فلا المال نافع بذاته ، ولا الجاه والسلطان يدفع عن صاحبه ما شاءه الخالق ، ولا القوة تؤثر الا اذا أريد لها ذلك .

أما التــواكل فهو أمر سلبى يبرأ الاســلام منه ومن المتصف به ، لأنه يعطل الاستخــلاف فى الأرض ، ويحرم الانســان من استخدام الطاقات المعطاقله من الخالق سبحانه ، ويجعل الانسان المكرم بالعقل فى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان الأعجم .

ونتاج التواكل هو الخور والخضوع ، والرضا بالذل والمسكنة ، والاستسلام للهزيمة الداخلية ، والاندفاع للقلق والتوتر والضياع .

**التوكل بين القرآن الكريم والسنة المشرفة :**

لقد حرص الاسلام على أن يكون أتباعه من المتوكلين ولذا حسهم على التــوكل يقول سبحانه وتعالى ( **وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا** ) الفرقان — ٥٨ — ويقول عز وجل ( **وعلى الله فليتــوكل المؤمنون** ) ابراهيم — ١١ — ويقــول عز وجل ( **فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين** ) آل عمران — ١٥٩ — ويقول سبحانه ( **ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا** ) الطلاق — ٣ — ويقــول سبحانه [ فى أول سورة الأنفال الآية الثانية فى وصف المؤمنين ( **انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون** ) وفى نفس السورة الآية ٤٩ يقول سبحانه [ **ومن يتــوكل على الله فان الله عزيز حكيم** ] عزيز لا يذل من استجــار به ولا يضيع من لاذ بجنــابه والتجأ الى حماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره[1] .

---

(١) الاحياء جـ ٢ ص ٢٣٩ .

ويقول لرسوله صلى الله عليه وسلم ( **فتوكل على الله انك على الحق المبين** ) النمل — ٧٩ — ويقول عن أنبيـائه ورسله ( **وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ) ابراهيم — ١٢ — •

انه سبحانه وتعالى يطالب المؤمن ألا يركن الى ذاته وقدراته وذات الآخـرين وقدراتهم ، فهو زائل وهم زائلون ، وما يملكونه من أموال وطاقات ليس الا ملك استخلاف •

وعليه فان التوكل الحقيقى لا يكون الا على الحى الذى يهب الحياة لكل ذى حياة •

والمتـوكل على الله يحبه الله ومن أحبه سبحانه كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسـانه الذى ينطق به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يسعى بها ، فهو ربانى فى كل حركاته وسكناته : وهو فائز برضوان الله سبحانه وتعالى ، لا كافى ولا معين له فى الوجود الا خالقه عز وجل •

يقول عمر رضى الله عنه سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقـول « لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصـا وتروح بطانا » رواه الترمذى • أى تخرج وهى خاوية البطن ، وتعود وقد امتلأت البطون بخيرات الله •

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال — يعنى اذا خرج من بيته — بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة الا بالله •

يقال له هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » رواه الترمذى وأبو داود •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال [ حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها ابراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقى فى النـــار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا : ان النـــاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ] رواه البخارى .

ويروى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا جاء على ناقة له فقال يا رسول الله أعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل . فقال صلى الله عليه وسلم « أعقلها وتوكل » ذكره الترمذى فى صحيحه .

وعن السبعين ألفـــا الذين يدخلون الجنة بغير حســـاب يحددهم الحديث الشريف [ هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون ] رواه الشيخان .

## معنى التـــوكل

بعد أن عرفنا أن الاســـلام يحض على التوكل ، وأن التوكل يعبر عن سلامة الايمان .

فاننا نسأل ما معنى التوكل ؟

يقول أبو حامد الغزالى : التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره الى فلان أى فوضه اليه ، واعتمد عليه فيه ، ويسمى الموكول اليه وكيلا ، ويسمى المفوض اليه متوكلا عليه(١) .

والتوكل هو اعتماد القلب على الوكيل وحده ، فالانسان اذ يتوكل على الله فمعنى هذا أنه يتخذه وكيلا أى يعتمد اعتمادا قلبيا عليه سبحانه وتعالى وحده .

---

(١) الاحياء جـ ٤ ص ٢٥٣ .

ويذكر ابن منظور أن الوكيل فى أسماء الله تعالى هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد يقول سبحانه ( ألا تتخذوا من دونى وكيلا ) أى ربا وكافيا وحافظا ٠

وحينما نقول حسبنا الله ونعم الوكيل أى كافينا الله وهو نعم الكافى ٠

والمتوكل على الله هو الذى يتيقن بقلبه أن الله كافل رزقه وأمره فيركن اليه ٠

وتوكل عليه بمعنى استسلم اليه واعتمد عليه(١) ٠

ان لفظة وكل وتوكل ومتوكل ووكيل تدور حول المعانى الآتية :

الكفيل — الكافى — الحافظ — المعين — الذى يركن اليه ويعتمد عليه ، ويستسلم لذاته استسلاما قلبيا مع اظهار العجز والحاجة ٠

يقول الامام أحمد بن حنبل : [ ان التوكل عمل القلب ] أى ليس للجوارح مدخل فيه ٠

بينما يقول البعض بأنه علم القلب بكفاية الرب للعبد ٠ ويفسره البعض بالسكون وانطراح القلب بين يدى الرب(٢) ٠

والتوكل على الله سبحانه ، يعنى اعتراف المؤمن اعترافا قلبيا بعجزه أمام خالقه ، وحاجته الشديدة اليه ، والاعتماد عليه ، والاستسلام له ، والركون لذاته ، والثقة بأنه سبحانه نعم الكافى والحافظ والكفيل والمعين ٠

---

(١) لسان العرب و ك ل ٠
(٢) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١١٤ ٠

**التوكل والأخذ بالأسباب :**

والتوكل أمر قلبى صرف لا يتنافى مع ما أمر به الانسان من الحركة والتفكر والعمل أى الأخذ بالأسباب .

والمتوكل وهو يستخدم قواه الجسمانية والعقلية ، ويتحرك فى الأسواق ليبيع ويشترى ، ويحمل أمتعته على كاهله ، ويشتغل بالتصنيع، ويغوص فى أعماق البحار بحثا عن خيرات الله ، ويطير فى الفضاء الخارجى محاولا اكتشاف ما فى الكون ، وهو يكتسب الأموال ويتداوى من الأمراض و.. .

هو اذ يفعل هذه الأمور وغيرها يمتثل لأمر الشرع فى الاخذ بالأسباب .

لكنه لا يركن لهذه الأمور ويعتمد عليها ويرى أنها مؤثرة بذاتها ، وانما يركن ويعتمد على الخالق لأنه سبحانه هو خالق الأسباب وهو المؤثر الحقيقى ، وبدونه لا تكون للأسباب أى قيمة .

ويخطىء كثيرا من يقول ان التوكل يعنى اهمال الأسباب .

انه أخذ بالأسباب مع اليقين القلبى بأن لا مؤثر فى الوجود الا المولى عز وجل . يقول الفخر الرازى ان [ التوكل هو أن يراعى الانسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها ، بل يعول على عصمة الحق ](1) .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد المتوكلين . لم يركن الا على الله ولم يثق الا فى عزته عز وجل ، وكان على يقين بأن الله وحده

---

(1) تفسير الفخر م ٥ ج ٩ ص ٧٠ .

هو الحافظ والكافى والكفيل والمعين والخالق للوجود ، والهادى لكل شىء، ليسير وفق ما خلق له .

ومع كل هذا لم يصرفه توكله حينما أمر بالهجرة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة عن الأخذ بالأسباب .

لقد تكتم أمر الهجرة ، ولم يعلم به أحدا الا الصديق ونفرا قليلا دعت الرحلة أن يعلموا بها ، وقال لعلى بن أبى طالب « نم على فراشى وتسج ببردى الحضرمى الأخضر فنم فيه فانه لن يخلص اليك شىء تكرهه » . وقام بالتمويه على مشركى مكة ، واستأجر عبد الله بن اريقط اذ هو خبير بالطرق الصحراوية ، ليكون الدليل على الطريق وطلب منه أن يسير فى طرق متعرجة زيادة فى تضليل الأعداء . واتخذ الصديق ليكون صاحبه فى الرحلة ، واختبأ معا فى غار ثور(١) .

ورغم أخذه صلى الله عليه وسلم بالأسباب ، فقد وصل الأعداء الى الغار ، ووقفوا بجواره يتلفتون بعد أن تأكدوا من انقطاع أثر الأقدام عند الغار .

وهنا قال الصديق وهو خائف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو نظر أحدهم فى اتجاه قدمه لرآنا . وهنا يظهر التوكل على حقيقته ، حيث يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن ان الله معنا » .

وكأنه عليه السلام يقول لنا من خلال هذا الموقف وغيره ، عليكم أن تأخذوا بالأسباب بطريقة صحيحة ، ومع الأسباب وقبلها وبعدها ثقوا

---

(١) وفاء الوفا بأخبار المصطفى ج ١ ص ٢٣٧ نور الدين السمهودى ، احياء التراث العربى بيروت .

أن الحافظ والكافى والمعين هو الله عز وجل وبدون كفالتـه وعونه يكون الخسران .

يقول سبحانه وتعالى ( **الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليـه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** ) التوبة — ٤٠ — .

وحينما وصل صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة بدأ فى تكوين الدولة الاسلامية فبنى مسجد قباء ليكون الجامع للمسلمين ، ولتحل فيه مشاكل المسلمين وليربى فيه الانسان المسلم التربية العقدية الصحيحة ، وليعرف كل ما يتصل بأمور دينه ودنياه .

وآخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وأزال النزاع القـائم بين الأوس والخزرج ، وعاهد اليهود على ألا يغدروا كعادتهم مقابل الحفاظ لهم على حرمتهم[1] .

وحينما علم أن قريشا تعد العدة للانقضاض على المسلمين بالمدينة ، جهز الجيش ونظمه ودربه على فنون الحرب،وأرسل السرايا للاستطلاع، واختار مكان اللقاء بأدنى ماء من بدر ، وغير هذا المكان حينما أشار عليه الحباب بن المنذر أن يأتى أدنى ماء من القوم[2] ، ووقف فى الجيش يقوى من معنوياته ويذكره بالله سبحانه وباليوم الآخر ، واتجه الى ربه سبحانه يطلب المدد والعون .

وفى غزوة أحد جاءت قريش بخيلها وعتـادها وجيشها لتنتقم من

---

(١) وفاء الوفا بأخبار المصطفى ج ١ ص ٢٥٠ — ٢٥٥ .

(٢) فقه السيرة ص ٢٤٠ الشيخ محمد الغزالى عالم المعرفة .

محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ، حتى تمحو عن نفسها عار هزيمتها فى بدر •

ودارت المعركة حاميـــة ، وكادت تتحقق بدر ثانية للمسلمين ، لكن النصر ابتعد عنهم بسبب أطماع مادية لنفر قليـــل من الرماة لم يلتزم بتنفيذ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم(١) •

وبعد انتهاء المعركة فكر أبو سفيـــان قائد جيش الشرك وقتئذ فى العودة اليها مرة ثانية والانقضاض على المسلمين للقضاء على محمد صلى الله عليه وسلم وجند الله •

فأرسل من يبلغ الرسول بأنه عائد لمواصلة الحر ب•

وهنا استعد المسلمون بأمر رسول الله صلى لله عليه وسلم وضمدوا جراحهم وحملوا أسلحتهم ونظموا صفوفهم واستعدوا كأحسن ما يكون الاستعداد لخوض معركة حامية مع المشركين •

ولم تصرفهم هذه الأمور أبدا عن الركون لله واتخاذه كفيلا وناصرا ومعينا •

هنا قذف سبحانه وتعالى فى قلوب أعدائهم الرعب فواصلوا الطريق عائدين الى مكة خائفين من سوء المصير •

يقـــول سبحانه ( **الذين قال لهم الناس ان النـــاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيـــل • فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** ) آل عمران — ١٧٣،١٧٤ — •

وفى غزوة الأحزاب أو الخنـــدق تحزب المشركون مع اليهود لقتال

---

(١) وفاء الوفاء جـ ١ ص ٢٨٦ السمهودى •

المسلمين وحينما علم الرسول بذلك أعد الجيش وأمر بحفر خندق حول المدينة واشترك مع المسلمين فى الحفر(١) .

ولقد أرسل صلى الله عليه وسلم الرسائل المتتابعة الى الملوك والقياصرة يدعوهم الى الاسلام .

وهكذا فى كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية كان صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب الظاهرة .

لكنه عليه الصلاة والسلام لم يركن اليها لايمانه أنها لا تؤثر الا بارادة الله سبحانه .

لقد كان صلى الله عليه وسلم يؤمن بأن الكفيل والكاف والمعين والحافظ هو الله سبحانه ولهذا كان يعتمد عليه ويركن اليه ويستسلم لذاته ويطلب منه ويثق فى عونه .

ان التوكل محله القلب ، والأخذ بالأسباب الظاهرة لا يتنافى مع التوكل القلبى ، فالمقدر هو لله سبحانه والفاعل على الحقيقة والقادر على كل شىء هو الله سبحانه .

يقول سهل التسترى التوكل حال النبى صلى الله عليه وسلم والكسب سنته فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته .

ويقول من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الايمان(٢) .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم متوكلين ولم يصرفهم توكلهم

---

(١) فقه السيرة ص ٣١٨ .
(٢) الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٤٢١ .

عن الحركات الظاهـرة التى هى الكسب وكانوا على ايمان بأن التوكل محله القلب •

لما تولى أبو بكر الصديق الخلافة وأصبح الصبـاح حمل بضاعته ومقياسه واتجه الى السوق ليبيع كعادته ، فلما رآه المسـلمون منعوه ، فقال لهـم [ لا تشغلونى عن عيالى فانى ان أضعتهم كنت لما سـواهم أضيع • حتى فرضوا له قوت اهل بيت من المسلمين ••• ويستحيل أن يقال ان الصديق لم يكن فى مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه ](١) •

ولمـا كانت الردة اعتبرها أبو بكر حـركة يقصد منها هز الكيان الاسلامى بالتشكيك فيـه ولهذا فقط حارب المرتدين ، آخذا بالأسباب الظاهرة ، مع يقينه القلبى بأن الحافظ لدين الله هو الله عز وجل •

ودخل عمر بن الخطاب المسجد بعد الصلاة فوجد قوما قد جلسوا فعـلاهم بدرته ثم قال لا يقعدن أحـدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة •

يقول أحد الصوفية وأما الحركة بالظاهر التى هى الكسب بالسنة فلا تنافى توكل القلب ، بعد ما يتحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى فى قلبـه لأن محل التوكل القلب وهو تحقيق الايمان ، فمن أنكر الكسب فقد أنكر السنة ، ومن أنكر التوكل فقد أنكر الايمان ، فان تعسر شىء من الأسبـاب فبتقدير الله سبحانه ، وان تيسر فبتيسـيره عز وجل • فتكون جوارحه متحـركة فى السبب بأمر الله وباطنه سـاكن لوعد الله سبحانه(٢) •

---

(١) الاحياء جـ ٤ ص ٢٦٢ •
(٢) الغنية ص ١٩٢ للجيلانى •

## التــوكل والصوفيــة

يقول السرى السقطى [ التوكل الانخلاع من الحول والقوة ][(١)] ، أى أن يبرأ الانسان من حوله وقوته ويثق فى أن الكافى والقادر هو الله عز وجل ولهذا يركن اليه وحده •

ولا يعني هذا أن لا يأخذ الفرد بالأسباب ، وانما مع الأخذ فلديه الثقة بأنها لا تعمل الا بتأثير الخالق وارادته ، ولهذا يكون الركون اليه سبحانه واستمداد العون منه •

وفى نفس هذا المعنى يقول أبو عبد الله بن الجلاء [ التوكل الايواء الى الله وحده فى جميع الأحوال ][(٢)] ويقول الجنيــد [ التوكل اعتماد القلب على الله ][(٣)] •

ويقول سهل التسترى التوكل [ الاسترســال مع الله تعالى على ما يريد ][(٤)] •

أى الســير فى طريق الله ، وفق ما أمر الله ، بالتفكر فى خلقــه ، والتزود من نعمه والعمل الجاد من أجل رفعة دينه ، والجهاد فى سبيله ، والثناء عليه وشكره على نعمه سبحانه وتعالى •

وفى نفس هذا المعنى يقول حمدون القصار [ التوكل هو الاعتصام

---

(١) عوارف ص ٤٥٠ •
(٢) اللمع ص ٧٩ •
(٣) اللمع ص ٧٩ •
(٤) اللمع ص ٧٨ •

بالله تعالى ](١) باللجوء اليه والاعتماد عليه والثقة فى عونه .

ويقول ابراهيم الخواص حقيقة التوكل [ اسقاط الخوف والرجاء مما سوى الله تعالى ](٢) فالايمان بالله والثقة فى أنه هو الكفيل والكافى يجعل الانسان مع أخذه بالأسباب لا يسأل الا الله ولا يستعين الا به وبذا لا يخاف ولا يرجــو الأسباب ، وانما خوفه ورجاؤه من الخــالق عز وجل .

ويقول أبو سعيد الخراز [ التوكل اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطــراب ](٣) . يعلق الامام الغــزالى على هذا التعريف بقوله : سكون بلا اضطراب اشــارة الى سكون القلب الى الوكيــل ، وثقته به واطمئنانه للركون اليه . واضطراب بلا سكون ، اشارة الى فزعه اليه وابتهاله وتضرعه بين يديه(٤) .

بينما يعلق ابن القيم قائلا : يريد حركة ذاته فى الأسباب بالظاهر والبــاطن — وهذا معنى اضطراب بلا سكون — وســكون الى المسبب وركون اليه ولايضطرب قلبه معه — وهذا معنى سكون بلا اضطراب(٥).

**التوكل لا يتم الا بأمور :**

والتوكل فى حقيقته لا يتم الا بوجود مجموعة من الأمور منها :

أولا : معــرفة صحيحة وكاملة بالله سبحانه وتعــالى وبوحدانيته وبهيمنته وقيوميته ، واتصــافه بكل كمال وتنزهه عن أى نقص ، وأن

---

(١) الفنية ج ٢ ص ١٩٠ .
(٢) الفنية ج ٢ ص ١٩٠ .
(٣) الاحياء ج ٤ ص ٢٥٨ .
(٤) الاحياء ج ٤ ص ٢٥٨ .
(٥) مدارج السالكين ج ٢ ص ١١٥ .

ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وبأن لا مؤثر على الحقيقة الا هو سبحانه ، وبأنه المرجع والملاذ •

والعارف اذا تم له ذلك على وجه كامل ، يكون قد وضع قدمه بطريقة صحيحة على بداية مقام التوكل •

ثانيا : ومع المعرفة الحقة يكون العلم بوجود الأسباب والمسببات وبأنها من عند الله ، ولا تؤثر الا بارادة الله • وبدون ارادة التأثير يكون وجودها كعدمها •

فالنار سبب للاحراق ، والاحتراق مسبب عنها • لكن النار كسبب لا تحرق بذاتها ، وانما هي سبب ظاهرى أريد منه أن يكون محدثا للاحراق • ويمكن أن توجد النار وتعطل عن عملها بارادة خالقها •

يقول ابن القيم [ وهذا عكس ما يظهر فى بدوات الرأى أن اثبات الأسباب يقدح فى التوكل ، وأن نفيها تمام التوكل • فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ••• ولكن من تمام التوكل عدم الركون للأسباب وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ](١) •

ويقول الغزالى [ قد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب ••• وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ](٢) •

ثالثا : عدم الالتفات الى غير الله سبحانه ، فالقلب لا يرى فى توكله الا الله عز وجل [ ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح الا

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١١٨ — ١٢٠ •
(٢) الاحياء جـ ٤ ص ٢٥٨ •

برفض الأسباب ، وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا الجوارح ](١) •

فالجوارح تأخذ بالأسباب الظاهرة كاملة ، لكن اليقين القلبى على الحقيقة هو أن لا مؤثر الا الله سبحانه وتعالى •

ويترتب على عدم الالتفات الا لله عز وجل أمر آخر ، وهو اعتماد القلب على الله والطمأنينــة فى جنابه ، واليقين فى كلاءته ، والسـكون فى معيته •

فالمتوكل على الله فى اعتماده وطمأنينته وسكونه وهو فى معية الله كالطفــل [ الرضيع فى اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدى أمه لا يعرف غــيره ](٢) •

رابعا : واذا كان الالتفات لا يكون الا الى الله ، والاعتماد لا يكون الا عليه • فان حسن الظن به سبحانه أمر هام يجعل المتوكل فى يقين من حفظ الله وكفالته ، وبأنه وحده نعم الكافى والمعين والحافظ [ فعلى قدر حسن ظنك به ورجائك له يكون توكلك عليه ](٣) •

خامســا : ومع الأمور السابقة يكون الاستســلام الكامل لذاته عز وجل ، وترك الاختيار له ، واسقاط التدبير ، ولا يقول الانسان فقط اللهــم انى لا أحسن التدبير فدبر لى • وانما يردد عن عجــز كامل وذلة وانكسار ومعرفة حقة بخالقه • اللهم انى لا أعرف التدبير فدبر لى فأنت الملجأ والملاذ بك كنا ولك نعيش واليك نعود •

سادسا : ومع الاستسلام يكون التفويض [ وهو روح التوكل ولبه

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٢٠ .
(٢) نفس المرجع ص ١٢١ .
(٣) بصائر ذوى التمييز جـ ٥ ص ٢٧٣ .

وحقيقته • وهو القاء أموره كلها الى الله ، وانزالها به طلبا واختيارا ](١)•

وبالتفويض يكون الانتقال الى ثمرة التوكل الى الرضـا فالمتوكل توكلا حقيقيـا يكون راضيا بما يفعله وكيله [ ومن توكل على الله قبـل الفعل ، ورضى بما قضى له بعد الفعل فقد قام بالعبودية](٢) •

**درجات التوكل :**

يذهب الامام الغزالى كما يذهب أيضا الكثير من الصوفية الى القول بأن درجات التوكل ثلاث :

الدرجة الأولى : يكون حال المتوكل على الله فيها ، والثقة بكفالته وعنايته كحاله بالثقة فى الوكيل•فكما يثق فى وكيله ويركن اليه فى كثير من الشئون ، كذا يكون ركونه الى الله سبحانه وتعالى •

وهذه الدرجة لا تلغى أخذ المتوكل بالأسباب وتدبيره واختياره •

وقبل أن نتعرف على الدرجتين الباقيتين نقرأ هذا النص لأبى على الدقاق الذى يشـير فيه بايجاز الى أن درجات التـوكل هى التوكل ثم التسليم ثم التفويض فصاحب التوكل [يسكن الى وعده وصاحب التسليم يكتفى بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه • والتـوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين ](٣) •

والضمائر فى وعده وعلمه وحكمه ترجع الى الله سبحانه وتعالى •

الدرجة الثانيـة : ويكون حال المتوكل فيها على الله سبحانه كحال

(١) مدارج ج ٢ ص ١٢٢ •
(٢) بصائر ج ٥ ص ٢٧٤ •
(٣) بصائر ج ٥ ص ٢٧٠ •

الطفل مع أمه فانه لا يعرف غيرها ولا يعتمد الا عليها وان غابت عنه فانه يصرخ يا أماه فقد وثق فى كفالتها وشفقتها فمن كان باله الى الله عز وجل ونظره اليــه واعتماده عليه كلف به كمــا يكلف الصبى بأمــه فيكون متوكلا حقا .

وهذه الدرجة تنفى تدبير المتوكل الا من حيث الفزع الى الله بالدعاء كالطفل حينما يفزع الى أمه .

والمتوكل فى هذه الدرجة قد فنى فى توكله عن توكله اذ ليس يلتفت قلبه الى التوكل بل الى المتوكل عليــه فقط فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليــه .

والدرجة الثالثة : وهى أعلا الدرجات وأصعبها ولا يصل اليها الا خواص الخواص . وهى أن يكون المتوكل فيها بين يدى الله تعالى مثل الميت بين يدى الغاســل ، لا يفارقه الا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية .

وهذه الدرجة تثمر عدم الدعاء والسؤال ثقة بكرم الله وعنايته وأنه يعطى بلا سؤال .

والغزالى اذ يذكر هذه الدرجات يرى وهو على حق فيما يراه أن الدرجة الأولى هى الأقرب للواقع .

أما الدرجتان الثانية والثالثــة فهما نادرتان وعزيزتا المنال اذ أن الدرجة الأولى لا تنفى تدبير الانسان وأخذه بالأسباب وبالتالى لاتتناقض مع ما جبل عليه الانسان فى دنيا الناس .

والدرجة الثانيــة تنفى كل تدبير للانسان الا تدبيرا واحدا وهو الفزع الى الله والتوجه اليــه بالسؤال مثل الطفل الذى يضرع الى أمه ولا يرى غيرها .

أما الدرجة الثالثـــة : فتنفى كل تدبير للانســـان وهذه أصعب الدرجات(١) .

ومقام التوكل يوصل بدوره الى أعلا المقامات فى الطريق الى الله وهو مقام الرضا .

---

(١) الاحياء جـ ٤ ص ٢٥٥ .

## مقـــام الرضـــا

آخر مقام من المقامات الشريفة التى ينزل فيها الانســـان بارادته وعقله وقلبه مقام الرضا .

وهو نقطة الوصول الى الله سبحانه وتعالى ومنزل مبارك يشتمل على المنازل كلها لمجيئه فى آخرها .

فبعد أن يستكمل الانسان التوبة ويتحقق بها ، فانه يصعد فى مدارج السالكين الى درجة أخرى من الارتقاء الروحى ، وهى درجة اجتناب كل ما فيه شبهة والتوقف كلية عما ليس فيه نص صريح بأنه حلال ، ويوصله هذا الأمر الى الزهد عما فى أيدى النـــاس ، واعتبار ما فى يده هو حق للناس ، وابتعاده بقلبه عما يشغل الناس من زهو الدنيا وزخرفها .

ويوصله الزهد الى الصبر فى طاعة الله ، وحبس النفس عما يغضبه عز وجل وعدم الجزع مما يقع عليه من البلايا والخطوب ، لايمانه بأنه واقع تحت دائرة الابتلاء والاختبار .

وبعد استكمال المريد لمقام الصـــبر ينتقل الى درجة أخرى من درجات السمو الروحى وهى درجة التوكل ، وفيها يركن الى الله سبحانه ويكون اعتماده فى كل أموره عليه عز وجل فهو وحده الحافظ الكافى .

ويرتفع به التوكل الى أسمى المقامات وأشرفها وهو مقام الرضا [ والرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد راكنا تحت حكم الله عز وجل ](١) .

---

(١) اللمع ص ٨٠ ومعنى ان الرضا باب الله الاعظم ان من اكرم به لقى بالترحيب الأوفى وأكرم بالتقريب الأعلى . الرسالة جـ ٢ ص ٤٢٣ .

وفيه يترك الاختيار لنفسه لثقته فى اختيار الله سبحانه وتعالى له ، وايمانه بأنه عز وجل سيختار له الأفضل والأدوم •

وهو فى نفس الوقت يسعد بمر القضـاء لقناعته القلبية بأنه هو الخير له ، يقول سبحانه وتعالى **( وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبـوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتـم لا تعلمون )** البقرة — ٢١٦ — •

ومع تراكم النوازل عليـه لا يتغير فى الظاهر والباطن ولا يشكو ، بل يسكن قلبه لأحكام الله فيه •

ومع سكون القلب واطمئنان النفس يقوى المريد بذات الله سبحانه وتعالى ويصير حبيبا له عز وجل •

**الرضا هل هو مقام أو حال ؟ :**

اختلف الصوفيـة فى الاجابة عن السؤال السابق ، فقال علمـاء خراسان ان الرضا من المقامات ، ويأتى بعد التوكل ، ويكون باكتساب العبـد •

وقال العراقيون : ان الرضا من الأحوال ، أى من الهبات الربانية والنسمات الروحية التى تهب على المريد فجأة ، دون أن يكون لاكتسابه أى دور فيها •

ويوفق القشيرى فى رسالته والجيلانى فى الغنية بين الرأيين بالقول: ان الجمع بينهما ممكن [ بأن يقال بداية الرضا مكتسبة للعبد وهى من المقامات ونهايته من جملة الأحوال وهى ليست بمكتسبة ](١) •

---

(١) الرسالة ج ٢ ص ٤٢٢ والغنية ص ١٩٧ .

ويدلل الذين يقولون بأن الرضا من المقامات على قولهم هذا بأن الله سبحانه وتعالى يمدح الراضين ويثنى عليهم ويعدهم بالمغفـــرة لكل ذنوبهم ، وهذا يدل على أن الرضا من الأمور الكسبية ، وهو واقع تحت قدرة الانسان ، اذ لو لم يكن كذلك لما كان هناك معنى للمدح أو الثناء ، لأن الانسان لا يمدح على أمر جبرى لا دخل له فيه(١) ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا » رواه مسلم والترمذى •

ويقول صلى الله عليه وسلم « من قال حين يسمع المؤذن وأنا أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمد عبده ورســـوله ، رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا غفر له ذنبه » رواه النسائى وابن ماجة •

**معنى الرضـــا :**

والرضا فى اللغة ترك السخط • نقول رضى عنه ، ورضى عليــــه ، ويرضى رضا ورضوانا ورضا بضم الراء ومرضاة • ضد سخط •

ونقول أرضاه أى أعطاه ما يرضيه ويبعده عن السخط •

واسترضاه وترضاه أى طلب رضاه •

[ ورضا العبد عن الله تعالى ألا يكره ما يجرى به قضاؤه • ورضا الله تعالى عن العبد أن يراه مؤتمرا لأمره ، منتهيا عن نهيه ](٢) •

والراضى هو الذى لا يسخط ويمتنع فى نفس الوقت عن الاعتراض على تقدير الله سبحانه وتعالى •

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٧٢ •
(٢) بصائر ذوى التمييز جـ ٣ ص ٧٧ •

وهو لا يتطلع لما فى أيدى الغـــير ، لأنه يحس أن تطلعـــه يعنى الاعتراض على الخالق ، وعدم القناعة الداخلية بما هو مكتوب له .

والراضى لا يزاحم الناس أرزاقهم ، لأن المزاحمة تحمل معنى الطمع والجشع ، وتدل على عدم الايمان بالقضاء والقدر . والحقيقة أن الخير كله فى حفظ الحال والرضا به ، وترك الالتفات الى ما سواه ، لأنه لا يخلو اما أن يكون ذلك قسمك ، أو قســـم غيرك ، أو أنه لا قســـم لأحد ، بل أوجده الله تعالى فتنة .

فان كان قسمك فهو واصل اليـــك شئت أم أبيت . فلا ينبغى أن يظهر منك سوء الأدب والشره فى طلبه .

وان كان قسم غيرك فلا تتعب فيما لا تناله ، ولا يصل اليك أبدا .

وان كان ليس بقسم لأحد بل هو فتنة فكيف يرضى العاقل أن يطلب لنفسه فتنة(١) .

**الرضا بين القرآن والسنة :**

والراضى يستسلم لله عز وجل ، وينقاد لحكمه ، ويذعن لأوامره ، ولاتغيره نائبة تنزل به ، هو دائما يثق فى رحمة الله ، ويستبشر بابتلاء الله له ، ويجاهد نفســـه ان هى حاولت أن تثنيه عن سعادته مما يحل به من مصائب . يقول سبحانه وتعالى **( يبشرهم ربهم برحمة منه ورضـــوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم )** التوبة — ٢١ — .

**ويقول ( قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم )** المائدة — ١١٩ — .

---

(١) الغنية للجيلانى ص ١٩٨ .

ورضى الله عنهم أى عن أفعالهم ورضوا عنه أى عن ما جازاهم به.

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى الرضا « ذاق طعم الايمان من رضى بالله تعالى ربا » رواه مسلم ، ويقول فى حديث طويل « واسألك الرضا بعد القضاء » رواه النسائى ، لأنه قبل القضاء لا يعرف الانسان شيئا عما هو مكتوب ، فاذا ما حل المكتوب بالانسان فانه يكون فى حاجة الى الرضا .

ويقول صلى الله عليه وسلم « من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له ... ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله له » ذكره الترمذى فى سننه .

وفى دعائه صلى الله عليه وسلم يقول « أعوذ برضاك من سخطك » رواه مسلم ، وكتب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى [ أما بعد فان الخير كله فى الرضا فان استطعت أن ترضى والا فاصبر ] .

## الرضا والصوفيـــة

وقد عرف الصوفية الرضا بتعريفات عدة هى فى جوهرها لا تخرج عن ترك الاختيـــار ، وعدم السخط ، والسكون القـــلبى بل السرور بمر القضاء .

يقول الجنيد « الرضا رفع الاختيار »(١) اذ أن اختيار الله سبحانه للانسان هو الأكمل والأتم فهو وحده الذى يعلم ما يصلح للانسان .

ويقول القناد [ الرضا سكون القلب بمر القضـــاء ](٢) ، ويقول ذو النون [ هو سرور القلب بمر القضاء ](٣) .

---

(١) اللمع ص ٨٠ .
(٢) اللمع ص ٨٠ .
(٣) اللمع ص ٨٠ .

وفى نفس المعنى يذهب المحاسبى الى القول بأن الرضا [ سكون القلب تحت جريان الحكم ](١) ويقول ابن عطاء الله السكندرى [ الرضا سكون لقلب الى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، لأنه اختار له الأفضل فيرضى به ويترك السخط ](٢) ، وفى معنى التعريف الذى قال به ذو النون يقول رويم [ الرضا استقبال الأحكام بالفرح ](٣) .

وكان سفيان الثورى عند رابعة العدوية فقال اللهم ارض عنا . فقالت له أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض . فسألها بعض الحاضرين ، متى يكون العبد راضيا عن الله ؟

فقالت : اذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة ](٤) .

**متى يبلغ العبد مقام الرضا ؟ وما هى علامات الراضى ؟ وهل من شرط الرضا ألا يحس بالألم ؟ :**

ويبلغ العبد مقام الرضا اذا توفرت فيه خصال أربع :

ان أعطاه الله سبحانه وتعالى قبل عطاءه .

وان منعه رضى بمنعه ولم يسخط .

وان تركه عبده حبا .

وان دعاه أجابه فى لهفة(٥) .

أما عن علامات الراضى فيذكرها ذو النون قائلا : [ هى ترك

---

(١) التعرف ص ١٢١ .
(٢) التعرف ص ١٢١ .
(٣) التعرف ص ١٢١ .
(٤) عوارف ص ٤٥١ .
(٥) عوارف ص ٤٥٢ .

الاختيار قبل القضاء وفقدان المرارة بعد القضاء وهيجان الحب فى حشو البـلاء ](١) .

والرضا قبل القضـاء عزم واصرار على الرضا ، أما بعده فهو الرضا اذ أن المقدور قد انكشف ، ومع انكشافه يظهر الراضى من غيره ، فالراضى على الحقيقـة يستقبل مر القضاء بالتسليم والفـرح والحب والسكون القلبى والاعتقاد بحسن ما أختاره الله له .

وليس من شرط الرضا ألا يحس الراضى بالألم أو المكروه ، بل من شرطه ألا يعترض على الحكم ولا يسخط ، فان وجود التـألم وكراهة النفس لا ينافى الرضا(٢) .

**كيف يعرف العبد أن الله تعالى راض عنه ؟ :**

اذا أحس العبد فى داخله أن لا أثر للاعتراض أو السخط أو الجزع مما يلحقه من مصـائب ، بل تقبل كل البلايا والمكاره بفرح ، وحمد الله وأثنى على ذاته عز وجل .. فهو بذلك راض عن الله ، وهذا الرضا هو دليل على رضا الله عليه .

يحكى القشيرى أنه سمع أبا على الدقاق يقول [ قال تلميذ لأستاذه هل يعرف العبد أن الله تعالى راض عنه ؟

فقال لا . كيف يعلم ذلك ورضاه غيب .

فقال التلميـذ بل يعلم ذلك . فقال كيف ؟ قال : اذا وجدت قلبى راضيا عن الله تعالى علمت أنه راض عنى .

فقال الأستاذ أحسنت يا غلام ](٣) .

---

(١) الغنية ص ١٩٨ .
(٢) بصائر جـ ٣ ص ٨٣ .
(٣) الرسالة جـ ٢ ص ٤٢٣ .

## درجات الرضا :

وأهل الرضا على ثلاث درجات :

الطائفة الأولى ، وهم أصحاب الدرجة الأولى هم أولئك الذين يعملون — بكل ما آتاهم الله عز وجل من طاقة — على تنفيذ الأوامر ، والابتعاد عن النواهى ، وترك الجزع والفزع مع سكون النفس عند المصيبة [ حتى يكون قلبه مستويا لله عز وجل فيما يجرى عليه من حكم الله من المكاره والشدائد والمنع والعطاء ] .

الطائفة الثانية : وهم أصحاب الدرجة الثانية وهم الذين لا يشغلهم رضاهم عن الله عز وجل ، حيث يستوى عندهم المنع والعطاء ، وانما جل شغلهم هو العمل من أجل أن يرضى الله سبحانه عنهم .

الطائفة الثالثة وهم أصحاب الدرجة الثالثة وهؤلاء تجاوزوا الدرجة الأولى وهى رضاؤهم عن الله سبحانه . والدرجة الثانية وهى رضاء الله سبحانه وتعالى عنهم لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا فان رضى سبحانه فبفضله لا بسبب آخر وان لم يرض فبعد له المطلق(١) .

## الرضا والأخذ بالأسباب :

نسأل فى البدء هل الاستسلام للفقر والذل والضعف والمرض والهزيمة دون أى محاولة للتغيير من الرضا ؟

هل يتنافى مقام الرضا مع حركة الانسان وعمله ؟ .

ان الاجابة لا . فالاسلام فى جوهره دين عقلانى يدعو للتفكر والتأمل فى النفس الانسانية يقول سبحانه **( وفى أنفسكم أفلا تبصرون )** الذاريات — ٢١ — .

---

(١) اللمع ص ٨٠ ، ٨١ .

وفى الأرض بكل مكوناتها يقول سبحانه **(وفى الأرض آيات للموقنين)** الذاريات — ٢٠ — •

وفى الكون كله يقول عز وجل **( فلا اقسم بمواقع النجوم • وانه لقسم لو تعلمون عظيم )** الواقعة — ٧٥،٧٦ — •

ويقول سبحانه **( ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليـل والنهار لآيات لأولى الألباب )** آل عمران — ١٩٠ — •

ويدفع الاسلام للحركة الجادة فى الوجود يقول سبحانه **( فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ) الملك — ١٥ — ويقول ( فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضـل الله )** الجمعة — ١٠ — ويقول **( ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ) النساء** — ١٠٠ — والرسول صلى الله عليه وسلم يقول « اليد العليا خير من اليد السفلى » واليد العليا هى التى تعطى مما أعطاها الله لا تلك التى تمتد لسؤال الغير •

ويقول عليه الصـلاة والسلام « باكروا الغدوّ فى طلب الرزق فان الغدو بركة ونجاح » رواه الطبرانى • ويقول عليه السلام « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده » رواه البخارى •

والعزة دائما لله وللرسول وللمؤمنين ولذا نجد الاسلام يحض على اعداد العدة للدفاع يقول سبحانه **( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة )** الأنفال — ٦٠ — •

**ويقول سبحانه ( فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيـل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيـه أجرا عظيما )** النساء — ٧٤ — • والرسول يقول « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا فى أهله فقد غزا » رواه الترمذى •

ولقد خلق الله سبحانه وتعالى الداء وخلق لــه الدواء فقد جاءت الأعراب الى رســـول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رســـول الله انتداوى ؟ فقال « نعم عباد الله تداووا فان الله لم يضع داء الا وضع له شفاء غــير داء واحد هو الهرم » رواه أبو داود • وفى صحيح مسلم عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه سلم قال « لكل داء دواء فاذا اصيب دواء الداء برأ باذن الله تعالى » •

والرســـول صلى الله عليه وسلم هو سيد الراضين وهو القدوة والمثل الأعلى للمسلمين أخذ بالأسباب فى كل مجالات الحياة من أجل عزة المؤمن وقوته وفوزه برضوان الله عز وجل •

وكان على ذلك الصحابة الأطهار رضى الله عنهم أجمعين •

## أهم مصـــادر البحث


— أبحاث فى التصوف — د•عبد الحليم محمود — دار الكتب الحديثة القاهرة •

— احياء علوم الدين — أبو حامد الغزالى — طبعة الحلبى سنة ١٩٣٩•

— بصائر ذوى التمييز جـ ٣ — ٥ — مجد الدين محمد الفيروزأبادى — المكتبة العلمية بيروت •

— تحقيق ما للهند من مقولة — أبو الريحان البـيرونى — عالم الكتب ط ثانية •

— التعرف لمذهب أهل التصوف — أبو بكر محمد الكلاباذى — الكليات الأزهرية سنة ١٩٨٠ •

— تفسير القرآن العظيم — اسماعيل بن كثير — دار المعرفة بيروت •

— تفسير الفخر الرازى — فخر الدين الرازى — دار الفكر ط أولى ١٩٨١ •

— تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين — الراغب الأصفهانى — سلسلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٦١ •

— جمهرة الأولياء — أبو الفيض المنوفى — طبعة الحلبى سنة ١٩٦٧ •

— حلية الأولياء — لأبى نعيم الاصفهانى — دار الكتب العلمية بيروت•

— الحياة الروحية فى الاســلام — د•محمد مصطفى حلمى — الهيئة المصرية ١٩٨٤ •

— الرسالة القشيرية — أبو القاسم القشيرى — دار الكتب الحديثة بالقاهرة •

— الـرعاية — الامام المحاسبى — دار المعارف ١٩٨٤ •

— رياض الصالحين — النـووى — دار الكتاب الاسلامى القاهرة •

— الزهاد الأوائل — د•مصطفى حلمى — دار الدعوة للطبع والنشر ط أولى ١٩٧٩ •

— شرح المقاصد — سعد الدين التفتازانى — طبعة ١٢٧٧هـ •

— الشفا بتعريف حقوق المصطفى — للقاضى عيـاض — دار الكتب العلمية بيروت •

— عوارف المعارف — السهروردى — مكتبة القاهرة سنة ١٩٧٣ •

— الغنيـة — عبد القادر الجيلانى — ط•الحلبى سنة ١٩٥٦ •

— فقه السيرة — الشيخ محمد الغزالى — عالم المعرفة •

— فى التصوف الاسلامى — نيكلسون ت : أبوالعلا عفيفى — لجنة التأليف والنشر سنة ١٩٦٩ •

— فى التصوف والأخلاق — د•عبد الفتاح بركة — دار الطباعة المحمدية ١٩٨٠ ط أولى •

— قوت القلوب — أبو طالب المكى — دار صادر •

— كشف المحجوب — أبو الحسن على بن اسماعيل الهجويرى — دار التراث العربى بالقاهرة •

— لسـان العرب — ابن منظور — دار المعارف القاهرة •

— اللمـع — أبو نصر السراج الطوسى — دار الكتب الحديثة مصر ١٩٦٠ •

— مدارج السـالكين — ابن قيـم الجوزية — مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥هـ •

— مقدمة ابن خلدون — عبد الرحمن بن خلدون —

— وفاء الوفا بأخبـار دار المصطفى — نور الدين السمهودى — دار احياء التراث العربى بيروت •

## الفهـــرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| مقـام الورع | ٦٩ |
| الورع لغة واصطلاحا | ٦٩ |
| الورع فى السنة المشرفة | ٦٩ |
| الصوفية والورع | ٧١ |
| أهل الورع على ثلاث طبقات | ٧١ |
| أقسام الورع | ٧٣ |
| مقام الزهـد | ٧٥ |
| معنى الزهد | ٧٥ |
| الزهد بين القرآن الكريم والسنة المطهرة | ٧٧ |
| الزهد والحياة | ٧٨ |
| الزهد والصوفية | ٨١ |
| أوجه الزهد ودرجاته | ٨٤ |
| مقام الصبر | ٨٦ |
| معنى الصبر | ٨٧ |
| الصبر فى القرآن الكريم والسنة المطهرة | ٨٨ |
| الصبر والصوفية | ٨٩ |
| أقسام الصبر | ٩١ |
| درجات الصبر | ٩٢ |
| مقام التوكل | ٩٤ |
| التوكل والتواكل | ٩٤ |
| التوكل بين القرآن الكريم والسنة المشرفة | ٩٥ |
| معنى التوكل | ٩٧ |
| التوكل والأخذ بالأسباب | ٩٩ |
| التوكل والصوفية | ١٠٥ |
| التوكل لا يتم الا بأمور | ١٠٦ |
| درجات التوكل | ١٠٩ |

الموضوع | الصفحة

رقم الايداع ٧٢٥٤ / ٨٩